ملحق

تاريخ الأدب الجاهلي

الدكتور علي الجندي
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

١٩٦٦

مكتبة الجامعة العربية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تبين لنا في الجزء الأول من تاريخ الأدب الجاهلي أن لدينا عدداً من مصادر الأدب الجاهلي تضم كثيراً من النصوص الجاهلية التي جاءت إلينا عن طريق الرواة الموثوق بأمانتهم وصدقهم ، وقد حازت القبول والاحترام من العلماء والنقاد والباحثين ، واعتمد عليها الجميع في دراساتهم ، واعتبرت مصدراً أساسياً في تصوير الأدب واللغة في العصر الجاهلي تصويراً صادقاً صحيحاً .

تلك النصوص هي تراث الجاهليين الأدبي ، ومن دراسة هذا التراث نجد أنه يتكون من شعر ونثر تتحقق في كل منهما مميزات النص الأدبي الصحيح ، وأهمها التأثر والتأثير ، كما سيتجلى ذلك بوضوح عند عرض نماذج لكل منهما فيما يأتي إن شاء الله .

والشعر في هذا التراث أكبر حظاً من النثر فيه ، فما ورد إلينا من شعر للجاهليين يفوق النثر في الكمية والعدد ، وليس السبب في ذلك راجعاً إلى أن النتاج الشعري أسهل من النتاج النثري ، بل العكس هو الصحيح ، ففي الشعر كلفة ليست في النثر ، وهذه تجعله أشق تأليفاً ، وأصعب منالا ، والنثر بالقياس إلى ذلك أسهل محاولة ، وأيسر تركيبا ، وأقرب منالا . فالشعر والنثر الأدبيان ، كل منهما ، تعبير عن العواطف في صورة مؤثرة مثيرة ، لكن الشاعر – في نصه الشعري بجانب ذلك – يلتزم وزناً وقافية ، يجعلانه مقيدا ، مضطراً لمراعاتها والتزامها في شعره ، في حين أن الناثر متحرر منهما ، فيجيء كلامه حراً خالياً من القيود والالتزامات ، فهو لذلك أيسر من الشعر. ثم إن الشعر – زيادة على ما تقدم – يتطلب موهبة خاصة ، لا توجد في جميع الناس ، وإنما تكون لدى قوم مخصوصين حباهم الله بها . ولذلك نرى رجال

النثر أكثر عددا من رجال الشعر في جميع الأمم قديمها وحديثها ، وتبعاً لذلك يكون النتاج النثري – عادة – أكثر من النتاج الشعري . والقليل أو النادر ، يحرص دائماً عليه الفرد والجماعات ، فيلقى من العناية والاهتمام والتقدير أكثر مما يلقى الكثير ومـــا هو في متناول اليد . وإذن لا نعجب إذا لقي الشعر عناية واهتماماً أكثر من النثر في جميع الأمم على مر العصور ، ومن ثم حرص الجاهليون ، والرواة ، والمدونون ، من بعدهم ، على الشعر أكثر من النثر ، فوعته الأفهام ، وتناقله الرواة ، في وقت تفشو فيه الأمية ، وتندر الكتابة التي لا يتسع لقيد النثر وحفظه سواها . ثم ان الشعر أيسر حفظـاً ، وأطول بقاء في الذاكرة من النثر . فإذا لاحظنا ذلك كله ، مع مـــا سبق بيانه عن الظروف التي أحاطت بالأدب الجاهلي في روايته وتدوينه ، تبين لنا بوضوح السبب في قلة النثر عن الشعر في تراث الجاهليين الأدبي .

ومما سبق يتضح أن الأدب الجاهلي ، بفرعيه : الشعر والنثر ، جاء بلغـة أدبية ، فصيحة بليغة ، تعهدها الأدباء بأذواقهم ، وعنايتهم ، واهتمامهـم ، فنمت ، وترعرعت ، وثبتت أقدامها ، وتوطدت دعائمها ، حتى أصبحت قوية البنيان ، متينة الأركان . فجاءت إلينا نصوصهم الأدبية في صورة لغويـــة ناضجة ، كاملة ، بحيث يستحيل معها الاعتقاد بأن النصوص الأدبية الجاهلية ، كانت أول نصوص أدبية لهم . حقيقة هي أقدم نصوص أدبيـــة للعرب ، ولكنها ليست أول محاولاتهم في ميادين الأدب ، لأنه لا يمكن أن يصدق العقل أن يُخلَق الأدب أول ما يخلق في صورة كاملة النضج ، فالجنين لا يولد إنسانا كاملا ، بل إنه لا بد أن يقضي زمناً طويلا ، ينمو فيه جسمه ، وتتكون خلاياه ، ويبني لنفسه شخصية تمكنه من ملاقـــاة الزمن وأحداثه ليقوى على مغالبتها ، ويبقى على الرغم منها حياً . فالمحاولات الادبية الأولى قد ضاعت ضياعاً تاماً من الوجود ، وكذلك ضاع كثير مما تبعها من محاولات أرقى منها نوعاً . ولذلك لا يمكننا أن نعرف سلسلة التطور الأدبي عند العرب من بدايتها إلى أن وصلت إلى الحالة التي عليها النصوص الجاهلية . فالأصول الأولى للأدب العربي قد ضاعت ، ولم يبق لنا منها إلا هذا الذي طلع علينا من قلب الصحراء تام الخلقة ، ممثلا الطور الأخير من أطوار نضجه وكماله .

الشعر الجاهلي

الشعر لغة العواطف ، وترجمان الأحاسيس ، ويُعنَى بإظهار الجمـال ، وتصويره في صور تسحر القلوب، وتثير الوجدان، وتبعث في النفس الإعجاب والارتياح . ولذلك عُدّ من الآداب الرفيعة ، واعتُبر فناً من الفنون الجميلة .

وقد عرف العرب - منذ أقدم عصورهم - قيمة الشعر وأثره في النفس ، وما له من شأن عظيم في تاريخ الأمم والشعوب ، بإظهار مواهبهـا ، وسمو عواطفها ، ورقة مشاعرها ، وتخليد أمجادها ومفاخرها ، فقدّروا الشعر حق قدره ، وعظّموا الشعراء وأكبروهم ، فكان للشاعر أعلى منزلة في قومـه ، وفي ذلك يقول ابن رشيق : « كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيهـا شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج » .

وإذا كان التاريخ لا يستطيع أن يخبرنا عن أول مخترع للكتابة، فكذلك لا يمكننا أن نعرف أول من قال الشعر،لكن المؤكد أن الانسانية في طفولتها لا بد أنها قد عبرت عن إحساساتها ومشاعرها بنوع من الكلام يخالف مـا تعبر به عن حاجاتها اليومية ، ومشاغلها العادية ، فكان ذلك - ولا شك - شعراً ، وهو - بطبيعة الحال - كان شعراً بدائياً يتناسب مع الإنسان في ذلك الطور من أطوار سيره في سبيـل التقدم نحو الترقي والمدنية والتهذيب . ولئن كانت المحاولات الشعرية الأولى قد ضاعت ، فإنه يمكن أن يقال إنه يغلب على الظن ، أنها كانت خالية من القيود ، متحررة من أيـة التزامات في

طريقـة التعبير ، وأساليب التصوير ، ثم أخذت تتدرج ، وتتطور ، شيئاً فشيئاً ، شأنها شأن الإنسان ، حتى انتهت إلى الصور التي نرى عليهـا الشعر الآن .

وإن كان لنا أن نتصور بدءاً للشعر العربي ، فربما ساغ لنا أن نقول إن أول خطوة خطاهـا في سبيل الشعر الموزون المقفى كانت متمثلة في الأسجاع بين جملتين ، ثم بين أكثر من جملتين ، وبعدهـا كان تساوي الفواصل في هذه الأسجاع ، ثم أخذ المنشيء يخضع هذا التساوي بين الفواصل ، شيئاً فشيئاً ، لأقيسة التفاعيل ، فتحقق له الوزن في البيت الواحد ، مع اتحـاد الحرف الأخير في الشطرين، ثم تلا ذلك التقيدُ بحرف القافية في الأعجاز، مع التحرر منه في الصدور . وعلى توالي الزمن تنوعت الأوزان وطالت القطع الشعرية ، مع اتحاد القافية ، ثم أخذت القطع تطول شيئاً فشيئاً حتى أصبحت قصائد .

ويقال إن أقدم الأوزان الرجز ؛ لأنه أبسطها ، وفيه كل بيت ينفرد بقافية خاصة . ومما قيل في نشأة الأوزان أنها في الأصل مأخوذة من توقيع سير الجمال في الصحراء ، وتقطيعه يوافق وقع خطاها ، فكانوا يقولون كلمات موزونة لسوق الإبل ، وهو الحُداء . ولكن إذا قيـل ذلك في الحال عند العرب ، فكيف يقال عن سواهم من الأمم ممن ليس لديهم إبـل . ومن ثم يبدو أن الأقرب الى الواقع والخيال ، أن ذلك ربمـا كان مصدره الملاحظة الدقيقة لظواهر الحياة والحالات الإنسانية والنفسية المختلفة ، فكثيراً ما يرى الانسان ، وما يفعل ، أشياء منتظمة الوقع ، مرتبـة المقاطع ، متساوية الأجزاء ، كما أنه كثيراً ما يوقع أصواتـه توقيعاً موسيقياً متناسقاً ؛ ولعل حركات الإبل ، كانت من بين الظواهر الكثيرة التي ساعدت العربي على التنظيم الموسيقى في الشعر ، فهناك بجانبها مثلاً : وقع أقدام الخيل ، وحفيف الشجر، وصفير الرياح ، وهديل الحمام ، وتغريد الطيور ، ثم العامل الأساسي ، وهو ميل الإنسان بفطرته إلى سماع النغم الرتيب ، واللحن الجميل ، ممـا يشنف الآذان ، ويشيع البهجة والنشوة في الجسم والروح . ولعل هذا هو السبب في

ميل الإنسان بطبيعته إلى الغناء. ولذلك يرى بعض الباحثين أن الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم ، وأن الشعر وضع أولاً للتّغنّي به ، حتى إن اليونان والرومان يقولون : « غنّي شعراً » وليس « نظّم شعراً » ، والعرب يقولون « أنشد شعراً » أي « غنّاه » ، ولا شك إن الإنشاد فيه لحن مطرب ، ويقال إن الرشيد كان يطرب للانشاد أكثر مما يطرب للغناء . وعلى كل فمما لا شك فيه أن الصلة وثيقة بين الشعر والغناء ، ففي كل منهما لحن جميل ، ومقاطع موسيقية منتظمة ، وإذا غُنّي الشعر كان أكثر جمالا ، وأعذب سمعاً .

واذا نظرنا في الأوزان التي وردت في الشعر الجاهلي الذي يعتبر قدم ما بقى من الشعر العربي نجد أنه جمع منها عدداً كبيراً ، وفي صور شتى؛منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها ما بين هذين . وعدد الأوزان التي استخرجها الخليل بن أحمد من الشعر الجاهلي خمسة عشر وزنا ، أضاف اليها أبو الحسن الأخفش واحداً آخر . وهذا العدد كبير إذاً نحن قارناه بعدد الأوزان الشعرية في الآداب الأخرى . ولا شك أن ذلك يدل على اتساع الذوق الفنى والأفق الحسي عند العربي القديم ، كما أنه يدل على أن الشعر العربي – في مرحلته التي انتهى بها إلى الحالة التي عليهاالشعر الجاهلي– كان حتما قد استغرق زمناً طويلاً مر خلاله بتجارب كثير ، ومحاولات عديدة استطاع فيها أن يتم ويكتمل ، ويبني هذه الصور الموسيقية المختلفة ، وهذا دليل آخر على أن الشعر العربي عريق ، لا يقف عمر أقدمه على مائتي سنة قبل الإسلام ، إنما هو موغل في الزمن ، ومنحدر من أصول سحيقة في القدم .

ومن أهم ما يمتاز به الشعر العربي اتحاد الوزن والقافية في جميع أبيات القصيدة الواحدة من أولها إلى آخرها . وقد ذكر بعض المستشرقين أن اتحاد القافية في القصيدة الواحدة في الشعر العربي نشأ عن الحاجة إلى إعانة الذاكرة، في عصر كان لا يعتمد في حفظ الأشياء فيه إلا على الذاكرة . كما أرجعوا إلى السبب نفسه تمسك العربي بوحدة البيت الواحد ، وضرورة تمامه بنفسه، وأنه

يجب ألا يكون معناه التام متوقفا على شيء في بيت سابق ، أو بيت لاحق.

ولا شك أن وحدة الوزن والقافية في القصيدة الواحدة ، وبخاصة إذا كانت طويلة ، تدل على اتساع الأفق اللغوي ، وامتلاك أزمة البيان ، ودقة الحس الفني ، وقوة النفس الشعري لدى الشاعر . ولا ريب كذلك في أن وحدة الوزن والقافية في القصيدة الواحدة ، تساعد الذاكرة على تلقيها بسرعة وسهولة ، كما تعمل على بقائها فيها مدة أطول ، وعلى ترديدها وقت الحاجة في يسر وتتابع .

والتجارب الشخصية لا تؤيد أن وحدة البيت الواحد في القصيدة الواحدة، التي تعني استقلاله استقلالا تاما في تركيبه وبنائه عن سابقه وعن لاحقه — لا تؤيد أن ذلك — مما يعين الذاكرة على حفظ القصيدة بأكملها ، وترديدها كما أنشأها صاحبها . بل إن ذلك كان السبب في حدوث كثير من التغييرات في نظام القصيدة ، ومواضع الأبيات، وتداخل وحدات القصيدة وجزئياتها ، أو تمزيق الوحدة الواحدة في أمكنة مختلفة من القصيدة ، مما يجعل القصيدة مختلطة مضطربة في الترتيب والنظام . ومن الملاحظ أنه كلما تماسكت أجزاء القصيدة ، بتشابك كل فيما قبله وفيما بعده ، كانت أشد بناء ، وأحكم نسجا ، كالسلسلة الواحدة المتصلة الحلقات ، المتينة الإحكام ، فتتحقق فيها الوحدة الكاملة ، والكل القوي المتين ، وذلك يجعل القصيدة أسهل حفظاً ، وأسرع علوقا بالذهن ، وأكثر بقاء في الذاكرة ، وأيسر تذكرا ، وأكمل ترديداً وأتم إلقاء ، وأضبط رواية. وقد سبق أن أشرنا أن وحدة البيت الواحدة كانت — على مايبدو — السبب في حدوث اختلافات كثيرة في ترتيب القصيدة الواحدة، عندما تروى بروايات متعددة . وقد ظهر ذلك أكثر ما يكون في القصائد الطوال التي يتحدث الشاعر في كل منها عن أكثر من موضوع، إذ تروى بعض الأبيات في أمكنة لا تتصل بمواضيعها . وحينما تجيء ابيات القصيدة مترابطة الأجزاء ، تأتي كأنها قصة تسوق كل جزئية منها الراوي أو القارىء أو السامع ، إلى ما يليها كأنما ينتقل إليها من تلقاء نفسه ، فلا يشعر بأدنى عسر أو مشقة .

●

والشعر الجاهلي ليس فيه شيء من نوع الشعر القصصي Epic ولا الشعر التمثيلي Dramatic وإنما هو من النوع الغنائي Lyric ، فهو شعر غنائي يهتم بتصوير نفسية الشخص ، وما يتصل به من وجدان وعاطفة ، وصاحبه يغنى بحبه وبغضه ، وأمله وألمه ، وغير ذلك من المشاعر المختلفة التي يحسها الانسان. وعدم وجود الشعر القصصي أو الشعر التمثيلي بين الجاهليين العرب ليس فيه شيء عليهم من الناحية الفنية ، وذلك لا يعني بحال نقصاً في شاعريتهم ، أو غضاً من مقدرتهم الأدبية ،لأن الشاعرية لا تقاس بالنوع فقط ، إنما تقاس كذلك بالدرجة التي بلغتها الأمة في الناحية التي تهيأت لها ، فيقال : أوَصلتْ درجة الكمال فيها أم لا ؟ وإذا لم تتهيأ لأمة من الأمم الظروف المناسبة لشيء من الأشياء فلا ينبغي أن تحاسب عليه . والجاهليون لم توجد لهم الأسباب التي تدعو لقول الشعر القصصي أو الشعر التمثيلي فلم يأت لهم فيها شيء . وجاء شعرهم كله من النوع الغنائي ، وقد بلغوا في هذا النوع درجة ممتازة ، وذلك لعوامل كثيرة ساعدتهم على ذلك .

وأهم هذه العوامل : صفاء البيئة التي كان يعيش فيها العربي مما جعله يحس الجمال الطبيعي ، ثم الحرية التي كان يتمتع بها ، وحبه لشخصيته ، ولقبيلته التي هي عماده وملاذه ، والاستقلال الذي كانت تتمتع به البلاد ، والحروب التي كانت تنشب بينهم ، وما كان يتسبب عنها من آثار تلهب العواطف ، وتثير المشاعر ، هذا إلى ما كانت تتطلبه صِلاتهم ومجتمعاتهم الخاصة والعامة من رصين الشعر ، والتنافس في ميادين الفصاحة والبيان .

لهذا كله وجدت نهضة شعرية في العصر الجاهلي ، فكثر الشعراء كثرة ظاهرة ، حتى لم يستطع المؤرخون أن يحصوا جميع الشعراء ، فقد فاقوا الحصر ، وكان في كل قبيلة شعراء ، وكان عدد القبائل كثيراً ، كما رأينا في أنسابهم ، وبطبيعة الحال لم تتساو القبائل في عدد الشعراء ، فالناس لا يتساوون جميعاً في المواهب ، والشاعرية موهبة يمنحها الله من شاء . ومن ثم فقد كان هناك من القبائل من كثر فيهم الشعراء ، ومنهم من كان حظه منهم

قليلًا ، كما ان الشعراء لا يتساوون في النتاج ، كما لا يتساوى الناس في الاعمال والآثار ، فمنهم من كان مكثراً ، ومنهم من كان مقلًا ، كما أنهم لم يتساووا في الشهرة والصيت ، فمنهم من ذاع صيته ، وعلا نجمه، ومنهم من لم يكن له حظ الذيوع والانتشار . وقد ادعت كل قبيلة أنها أكثر القبائل عدداً في الشعراء ، كما ادعت كل منها أن شعراءها أجود من غيرهم . ومن ثم حاول كثير من النقاد أن يقسموا هؤلاء الشعراء طبقات ، وقد اختلف هؤلاء النقاد فيما بينهم على الأسس التي يقسمونهم عليها الى طبقات ، منهم من اتخذ الشهرة أساس التقسيم فراعى ذيوع الاسم ، وانتشار الشعر ، ومنهم من جعلها مبنية على أساس ما بقي من الشعر جملة ، ومنهم من جعلها على أساس ما كان للشعراء من معان وأساليب في طريقة التصوير الشعري ، ومنهم من أسس التقسيم على الناحية الاجتماعية ، أو الغرض الشعري ، أو الجهات التي كانوا ينزلونها ، أو الديانة التي كانوا يعتنقونها ، إلى غير ذلك من الاعتبارات التي رآها هؤلاء الدارسون صالحة لتقسيمهم طوائف تتميز كل منها عن الاخرى ببعض الامور الخاصة حسب ما تبين لهم من دراساتهم . والظاهرة الواضحة في كل هذه الدراسات أن أصحابها يعنون بالشعراء الذين عنوا بدراسة آثارهم أو بعضها ، فاشتهر هؤلاء الشعراء أو زادت شهرتهم بهذه الدراسات . ومع هذه الأسماء الكثيرة للشعراء الذين ورد ذكرهم الطبقات والدراسات المختلفة ، فإن هناك عدداً ضخماً سواهم ، وقفنا على أسمائهم من الأدباء الباحثين الذين أعجبوا بنتاجهم، فخلدوهم في مختاراتهم ودراساتهم ، من أمثال أصحاب دواوين الحماسة وعلى رأسهم أبو تمام ، وأصحاب المختارات ، وعلى رأسهم المفضل ، والأصمعي ، ومن أصحاب معاجم الشعراء كالمرزباني .

* * *

ومن دراسة الشعر الجاهلي يتبين أنه حافل بالحديث عن كثير من أحوالهم، وعاداتهم ، وأخلاقهم . ولذلك جاء القول المأثور : « الشعر ديوان العرب»،

والحق أنه سجل خالد لهؤلاء القوم، تتجلى فيه بوضوح مظاهر الحياة ،والبيئة في ذلك العصر .

ففيه نرى البيئة الصحراوية ، مصورة تصويراً حقيقياً ، سماء صافية ، ترسل أشعتها القوية على رمال الصحراء ، فتبدو كأنها الذهب النضار،ويسطع قمرها ، وتتلألأ نجومها ، في ليل هادىء جميل ، حلو قصير على المَرِح الطروب ، وممل طويل على المهموم الحزين ، وأرضها قاحلة جرداء ، يقل فيها الماء والنبات، فإن وجدا في مكان،كان روضة تسر الناظرين،غدير الماء قطعة من الجنة ، ومزادة الماء كلها حياة . وفيه نرى الوهاد ، والوديان ، والجبال ، والهضاب ، يتسلقها البدو ، متجشمين الصعاب ، وينحدرون إلى المنخفضات في صبر وجلد ، كل هذا في سبيل الحياة ، والبحث عن أسباب الرزق ، يتعثرون بالحجارة الصلبة ، ويصطدمون بالصخر والجندل ، وتغوص أقدامهم في الرمال ، ونرى الطرق المطروقة ، والسبل الملتوية ، يضل عنها من لا خبرة له بها ، ثم يلمح نار الكرم تناديه ، أو ترشده وتهديه . ونرى الفلاة أحياناً يشتد بها الحر ، فيكاد يذيب دماغ الضب ، فيشتد العطش ، ويتراءى السراب ، فيحسبه الظمآن ماء ؛ فاذا ما حل الشتاء اشتد البرد ، وكان الزمهرير ، وتساقط الثلج ، وإن جادت السماء ، نزل الغيث ، وجاء الخير ، فانتشر الكلأ ، وعلا الوجوه البشر ، فيتسابق الناس إليه ، وترى القبائل تتحرك مسرعة نحو الكلأ والعشب ، وقد تضطر الظروف بعضها للنزوح عن مكانها ، فتترك ديارها ، وتبقى الرسوم والأطلال ، مصدر اللوعة والحزن للصب ، ومثار البكاء والدموع للمحب المتيم ، بما توحيه من ذكريات لا تنسى.

وفيه نرى من ظواهر الطبيعة الصامتة ، مسرى النسيم العليل رخاء ، وهبوب الريح عاصفة ، وتراكم السحب ، ترعد وتبرق ، ونزول الأمطار ، طلًّا ووابلاً ، ومجرى الماء ، عذباً سلسبيلاً ، هادئاً خفيفاً ، أو جارفاً عنيفاً. ومنابع العيون غائرة سحيقة ، أو تفيض في سحر ودلال . أو تجمعت في غدير ، تداعب الرياح صفحته ، فتقسّمه طرائق تتراقص في رشاقة وجمال .

وبجانب صور الطبيعة الصامتة ، نرى في الشعر صور الحياة المتحركة ، فنشاهد فيه ما في الصحراء من حيوان وطيور وحشرات : فنرى فيه الإبل تروح وتجيء ، بين إمهال وإسراع ، وجري ، وإرقال ، في السلم ، وفي الحرب ، وهي وسيلة لمواصلاتهم ، وأداة لتنقلاتهم ، ومصدر من مصادر الرزق والحياة ، فتحمل أثقالهم الى بلد لم يكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، وتفيض عليهم بالخير من لبَن وشَعر ، فيشربون لبنها ، ويتخذون من أوبارها ملابسهم يتقون بها الحر والبرد ،وأثاث بيوتهم حيث يجدون الراحة والهدوء ، فإذا ما عزّ القوت ، ضحّت بنفسها لأهلهم ، فتقدم لحومها غذاء شهياً لهم ، فتحفظ عليهم حياتهم حية وميتة . وفيه نرى صوراً واضحة للفرس ؛ وسيلة للصيد ، تلك الرياضة المحببة ، فتجلب الخير، وتوفر لهم وجبات شهية لذيذة، فإذا خيّم الفزع ، وادلهمّ الخطر ، كانت لهم الحصن المتين ، فبها يقابلون الأعداء ، ويقتلون المعتدين ، ويلاقون الأبطال ، ويهزمون الصناديد ، فتدفع عنهم الكيد ، وتفرج الكرب ، وتحمي الشرف ، وتعلي المنزلة ، وتجلب الثراء والخير . ولأهمية الإبل والخيل في حياة العربي ، عني بهما عناية تامة ، وكان لهما أبلغ الأثر في إحساسه ومشاعره ، فأجاد في وصفهما إجادة تامة ، وأبدع في صورهما الشعرية أيما إبداع ، حتى جاءت أوصافهما كاملة تامة الأجزاء من جميع النواحي .

كما نرى في الشعر صور النعام ، والظليم ، والظبي ، والغزال ، والأسد ، والضبع ، والذئب ، والوعل ، والبقر ، والثور ، والأتان ، والضب ، والغنم ، والعنز ، والكلب ، والصقر ، والعقاب ، والغراب ، والحمام ، والقطا ، والجراد ، والحية ، والعقرب ، والنمل ، والذر ، وغير ذلك من الحيوانات التي تمرح في جو الصحراء الواسع الفسيح .

فإذا ما جاء الشعر إلى أولى ملهمات الشعر من صور الكون التي تفيض بالحياة والحيوية ، وهي المرأة ، نرى الشاعر الجاهلي يجيد في تصوير ما حباها الله به من جمال طبيعي ، فتبدو كأنها إلهة الجمال ، أو أنها الجمال في تمثال .

ولئن بحثنا عن صور الحياة في الشعر الجاهلي فسوف نجدها واضحة جلية فيه ، فالجاهليون كما يبدون في شعرهـــم ، يعتزون بأنفسهم ، ويشمخون بأنوفهم ، يحمون الحمى ، ويحفظون العرض والشرف ، ويتباهون بالحفاظ على حقوق الجار ، وإكرام الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وإجابة الداعي ، ويتفاخرون بالقوة والغلبة ، وكثرة العَدَد والعُدَد ، فإذا مـــا ثارت نفوسهم — وكانوا سرعان ما يثورون — قامت الحرب ، واشتعلت النيران ، فتتجمع الجيوش ، وتتلاحم الصفوف ، وتدور رحى المعـارك ، وتتوالى الطعنات والضربات ، فترى القتلى صرعى ، والأرض مخضبة بالدماء ، والجرحى يئنون ، والأسرى في الأغلال ، والسبايا يسقن في ذل وهوان ، وتصبح النفوس الموتورة متأججة ، والحقد قد تمكن في النفوس ، والغيظ يكاد يقطع نيـــاط القلوب ، والأخذ بالثأر يعمي الابصار ، ويحيل الحياة ظلاما ، الهمّ يزداد ، والالم يشتد لحظة بعد لحظة ، وكلٌّ قد غفل عن نفسه ، وأهمل شئونه ، فلا يهتم بمظهره ، وقد آلى على نفسه ألا يغتسل ولا يتنظف حتى تكفّ الهـــامةُ عن الصياح ، وهكذا تقود المعركة إلى معارك ، فنشاهدهم في نزاع مستمر ، وعراك دائم ، ولا يكفون عن الاستعداد للخطر على الدوام ، فهم دائماً على أهبة الاستعداد لملاقاة الاخطار ، الاسلحة تُهيأ وتُعد ؛ والرماح تبرق ، والسيوف تلمـع ، والقسى مشدودة ، والسهام تملأ الكنائن . وفي المعركة يظهر الفرسان ، والابطال ، الطعن شديـــد ، والضرب عنيف ، والدروع تحمي الصدور ، والبَيْض تلمع فوق الرءوس ، وميدان المعركة فوقه سحب من الغبار ، وتظلله العقبان ، وعصائب الطير تهتدي بعصائب متجهة نحوه ، وقد نرى بعد ذلك صور الساعين في فداء الأسرى ، والمتطوعين للصلح بين المتحاربين .

كما أنه يرينا صورة للنزاع بين العشيرة الواحدة ، وفيها التأثر الشديد باد على وجوه القوم ، إذ أن ذلك لا يعني إلا إهلاك العشيرة نفسهـــا بنفسها ، وتخريب بيوتها بأيديها ، وهنا نرى قلوبهم تدمي حزناً على ذويهم الذين تسيل دماؤهم على أسنة رماحهم ، وظبات سيوفهم .

فاذا ما نحينا هذه الصور الدامية جانبا ، رأينا في الشعر الجاهلي صوراً لأوقات الهدوء والدعة ، وساعات الطمأنينة والأمن ، فنرى صور القوم يخرجون للصيد ، على خيل كلها قوة ونشاط ، ومعهم أدوات الصيد من ُعدد وحيوان ، ثم يعودون ممتلئي الوفاض ، هاشين باشين ، بما غنموا من سمين الصيد ولذيذ الطعام .

كما يرينا القوم في مجتمعاتهم الخاصة والعامة ، يتبادلون الآراء في الصالح العام ، ويتشاورون فيما يهمهم من قضايا ومشكلات ، أو يتسابقون في ميادين الفصاحة والبيان ، أو يتحاكمون إلى ذوي العقل والحكمة ، أو يتسامرون في أمسياتهم بالقصص والأخبار ، أو يتجاذبون أطراف الحديث في الطرائف والملح والنوادر والآثار ، أو يلهون في منتدياتهم باللعب والميسر ، أو ينتشون بشرب الخمر واحتساء الأقداح، أو يرفهون عن أنفسهم بأنواع الطرب والغناء، وغير ذلك مما يسري الهم ، ويبعث في النفس الراحة والإحساس بالجمال ومتعة الحياة .

هذا غدا الصور الرائعة التي نرى فيها القبيلة في مجتمعها الخاص ، ملتفة حول رئيسهم يتباحثون في شتى نواحي القبيلة السياسية والاجتماعية ، أو يستمعون إلى كبيرهم ، يبصرّهم بالحياة ، ويفيدهم من تجاربه ، أو من معلوماته وثقافته ، التي ألمّ بها عن طريق عقله الواسع ، وإدراكه القوى ، ونظره البعيد .

وإذا اتجهنا نحو الشعر الجاهلي لنرى كيف صوّر المثُل العليا للعرب ، نجد فيه صورا واضحة لحبّهم للاغاثة،والنجدة، والإسراع إلى إجابة الداعي، وتعظيمهم للوفاء ، والقيام بما تقتضيه المعاهدات من واجبات والتزامات ، وإعجابهم بالصمود أمام الخطر ، وملاقاة الأعداء في رباطة جأش ، وحماية اللاجىء ، ورعاية حق الجار ، والمحافظة على أهله وشرفه وبيته ، وإكرام الضيف ، وهداية الضال ، والإيثار حين ترغم الشدائدُ الناسَ على الأثرة .

والشعر الجاهلي يصور فقر الصحراء المدقع تصويراً تاماً في الحديث عن كثرة الغارات والحروب طمعاً في الغنائم ، ورغبةً في الغنى ، وفي أشعار الصعاليك، وفي الكلام عن وثوب اللصوص على أموال الآخرين ، وفي الإكثار من الفخر والمدح بالجود والكرم والإسراف في الإنفاق وإشراك الفقراء في أموال الأغنياء .

كما أن فيه إشارات إلى بعض معتقداتهم وشعائرهم الدينية ، واتصالاتهم بمن كانوا يجاورونهم داخلياً ، وخارجياً .

ومجمل القول القول أن الشعر الجاهلي يعطينا صورة واضحة للعرب وحياتهم في ذلك العصر ، وهي صورة ان لم تكن شاملة لجميع أحوالهم ، فهي تمثل معظم نواحيهم .

* * *

أثرت هذه البيئة ، بمظاهرها المختلفة ، وتلك الحياة بمعالمها المتعددة ، في نفسية الشاعر الجاهلي ، فحركت وجدانه ، وألهبت عواطفه ، وأثارت مشاعره ، فانطلق لسانه مصوراً خلجات نفسه ، ونبضات حسه ، في شتى المناسبات ، فجاء الشعر الجاهلي حافلا . بمختلف العواطف الإنسانية ، ومن دراسة هذا التراث الشعري نجد أنهم تغنوا بطيب أعراقهم ، ومكارم أخلاقهم ، وأشادوا بأبطالهم ، وخلدوا أيامهم وأمجادهم ، وتعالوا بما أحرزوه من نصر وغنائم ، وغالوا في الحديث عن هزائم أعدائهم ، وما نالهم من خسائر في الأرواح والأموال ، وما كبلوا فيه من سلاسل وأغلال ، وما سيموا به من الخزي والعار ، وما سببوه لهم من هموم وأحزان ، بما توعدوهم به من تهديد؛ وذرفوا الدمع سخيناً على ضحاياهم ، ذاكرين أفضالهم ، ومشيدين ببطولاتهم وتضحياتهم ، آخذين العهد على أنفسهم بالثأر لهم في عشرات من أعدائهم ، إلى أن تهدأ نفوسهم ، ويطمئن بالهُم ؛ واعتذروا عما بدر منهم مما لا يناسب الخلق الكريم ، أو البطل العظيم ، ومدحوا اعترافاً بالفضل ، وتخليداً للشهامة

والمروءة ، ووصفوا كل ما وقعت عليه عيونهم من مظاهر الجمال ، فأتوا في كل ذلك بروائع العصور ، وامتلأ شعرهم بفنون عديدة من الشعر الغنائي ؛ ففيه الوصف ، والغزل ، والفخر ، والمــدح ، والرثاء ، والاعتذار ، والهجاء ، والتهديد ، والإنذار ، والحكمة .

ووجود هذه الفنون والأغراض في الشعر الجاهلي لا يعني أن الشاعر كان يؤلف قصيدته في غرض واحد فقط منها ، فيندر أن نجد قصيدة ، وبخاصة تلك الطوال ، تتكون من غرض واحد ، بل إن كل قصيدة كانت في معظم الأحوال تتألف من الحديث في اكثر من فن واحد من هذه الفنون ، فتحتوي القصيدة الواحدة مثلاً على الغزل والوصف ، والفخر ، والهجاء ، والوعيد ، وقد تشتمل على أغراض أكــثر من هذه ، كل ذلك راجع لهوى الشاعر ، وطواعية الشاعرية له ، والمثيرات التي تهيج عاطفته ، أو تحرك مشاعره . بل إننا أحياناً قد نجد الغرض الواحد يتحدث عنه الشاعر في أكثر من موضع واحد في القصيدة ، فيفصل بين جزئياته بعضها وبعض ، بالحديث عن موضوع آخر أو أكثر . وفي الحق لا يمكننا القطع بأن ذلك كان يحدث من الشاعر نفسه حينما كان يؤلف قصيدته ، فقد يكون ذلك من الشاعر ، وقد يكون سببه راجعاً إلى الراوي أو الرواة الذين جاءت القصيدة عن طريقهم ، أو إلى من قــام بتسجيلها وقت التدوين . وقد ساعدهم على ذلك وحدة البيت التي قدّسها العرب ، ولم يجد الرواة أو المدوّنون بأساً في ذلك ما دامت الامانة متوفرة — في نظرهم — من حيث أداء القصيدة كاملة الأجزاء .

وفي كل قصيدة طويلة تضم أكثر من موضوع ، يغلب على الظن ، أن موضوع القصيدة كان في أول الامر موضوعاً واحداً يتناوله الشاعر في قصيدته ، ويتحدث عنه باعتباره الغرض الاساسي منها ، وقد يجره هــذا الموضوع إلى غيره ، فالحديث ذو شجون ، وهكذا قد يتوارد على خاطر الشاعر كثير من المواضيع فتندرج كلها في سياق الحديث تبعاً لمقتضيات الحديث ، وطبيعــة نفس المتحدث ، وطريقتها في التشميب ، ومدى تذكرها للموضوع الاصلي .

ومع حسن الربط بين هـــذه الموضوعات تبدو القصيدة متناسقة ، مترابطة الاجزاء ، حتى لو كانت هناك غرابة بين هذه الموضوعات . ولكنا أحياناً نجد في القصيدة الواحدة الانتقال من موضوع إلى آخر فجأة ، وبدون تمهيد ، أو ربط ، فتبدو القصيدة أجزاء متفرقة متباعدة ، وكأنها مقطوعات شعرية لكل منها موضوعه ، ولا يربط بينها إلا وحدة الوزن والقافية . وقد تبدو هذه الظاهرة بطريقة معكوسة ، فتتناثر القصيدة الواحدة في عدة مقطوعات ، ويغلب على الظن حينئذ أن ذلك حدث من الرواة حينما ضاع من ذاكرتهـــم القسم المهيىء للانتقال من موضوع إلى آخر في القصيدة الواحدة

وقد يرجع السبب في اشتمال القصيدة الواحدة على أكثر من موضوع ، إلى أن الشاعر قد يؤلف أبياتاً في موضوع واحد ، ثم تمضي فـــترة من الأيام ، فتعنّ له أبيات في موضوع آخر ، ويأتي بها على نفس الوزن والقافية ، وهكذا في عدة موضوعات ، ثم يربط بين هذه الموضوعات بما يراه مناسباً ، فتجيء القصيدة الواحدة متعددة الموضوعات والأغراض . ويغلب على الظن أن ذلك كان يحدث بين الشعراء الذين يعنون بفنهم الشعري كثيراً ، فيعيدون النظر مراراً في كل قصيدة يؤلفونها ، وبخاصة إذا كانت طويلة ، وينوون بها أن تكون في مجال التنافس في ميدان الفصاحة ، والسبق في الفن الشعري .

ومهما يكن من شيء فإن ما لدينا من التراث الشعري للجاهليين يدل دلالة قوية على الظواهر العامة والخاصة التي كانت تثير مشاعر العربي واحساساته ، وعلى يقظة العربي ، واستجابته للمثيرات التي من شأنها أن تحرك مشاعر النفوس المرهفة ، كما يدل على أن الشاعر الجاهلي على العموم قد استطاع بقوته الشاعرية أن يلم بجوانب النفس البشرية كلها ، فصور انفعالاتها وأحاسيسها في كل الظروف والأحوال والمناسبات ، فغطى جميع نواحي الشعر الغنائي الذي يعنى بتصوير نفسية الانسان ، وما لها من ميول وعواطف ووجدان .

* * *

والشعر الجاهلي كله مكون من هذه العواطف والانفعـالات ، وقد جاءت فيه جميع الموضوعات التي يتألف منها الشعر الغنائي ، وسنحاول فـيما يلي من

الصفحات أن نسوق بعض الأمثلة التي يتضح منها ما سبق ، مكتفين بالقليل، تاركين الاستيعاب للدراسة الواسعة التي من شأنها ذلك إن شاء الله .

ففي ميدان الوصف ، نجد الشاعر الجاهلي قد صوّر البيئة العربية تصويراً عاماً استوعب فيه جميع ظواهر الحياة في ذلك العصر ؛ فمثلا في وصف الصحراء وما بها ، يقول عميرة بن جعل [1] :

ألا يا ديارَ الحيّ بالبَرَدانِ ... خلَتْ حِجَجٌ بعدي لهنّ ثمانِ

فلم يبق منها غير نُؤيٍ مُهدّمٍ ... وغيرُ أوارٍ كالرَّكيّ دِفانِ [2]

وغيرُ حطوباتِ الولائدِ ذَعْذَعَت ... بها الريحُ والأمطارُ كلّ مكانِ [3]

قفارٌ مَرَوراةٌ يحارُ بها القَطا ... يَظَلّ بها السَّبْعَانِ يعتركانِ [4]

يُثيران من نَسْجِ التراب عليهما ... قميصين أسْماطاً ويَرْتديانِ [5]

وبالشرف الاعلى وحوش كأنها ... على جانب الارجاء عُوذُ هِجانِ [6]

وهنا يبدأ الشاعر قصيدته – كما كانت عادة الشعراء – بالحديث عن ديار الحبيبة التي تركتها ، فيصف المكان الذي كانت تسكنه، وما أصبح عليه بعد أن تركه أهلها ، وصار قطعة من الصحراء المقفرة المهجورة ، فلم يبق به إلا

---

(١) المفضليات : دار المعارف سنة ١٩٦٤ ص ٢٥٨ ق : ٦٤ ، ب : ١-٦ .

(٢) النؤى : الحاجز الذي يكون حول الخباء لئلا يدخله الماء ، كما يقال أيضاً للحفيرة التي تحفر حول الخباء لترد الماء عنها . الأواري : جمع آري ، وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه . الركى : جمع ركية ، وهي البئر . دفان : مندفنة ، جمع دفين .

(٣) الحطوبات : جمع حطوبة ، وهو ما يحتطبه الإماء ويجمعنه . الولائد : الإماء . ذعذعت : فرقت .

(٤) مروراة : لا ماء فيها، ولا تنبت شيئاً . يحار: يضل ، يقصد ان القطا يتيه فيها ويضل، ولا يهتدي فيها لشيء . وليس في الطير أهدى من القطا ، فاذا حار في مكان كان غير القطا فيه أشد حيرة . السبع : المفترس من الحيوان . يعتركان : يلتمس كل منهما أكل صاحبه من الجدب .

(٥) أسماطا : لعله يريد أسمالا أي بالية .

(٦) الشرف : المرتفع من الارض . الارجاء ، جمع « رجا » بالألف ، وهي النواحي . العوذ : الابل التي معها اولادها : هجان : كرام .

آثار متهدمة وبقايا أطلال عفت وتهدمت أو طمرت ، أو فرقتها الريح والامطار في كل مكان ، وامتلأ هذا الموطن بالرهبة والفزع ، وطمست معالمه، وضاعت منه جميع آثار الحياة حتى أصبح متاهة ، يضل بهاالساري، ولو كان أخبر الناس بالطرق والجهات ، وصار مأوى للسباع المفترسة ، وقد خلا من الماء والرزق ، حتى إن الحيوانات الضارية لا تجد ما تقتات به ، فيتعارك كل منها مع الآخر ، ويفترس القوي الضعيف ، وقد امتلأت جميع البقاع وبخاصة الاماكن المرتفعة بالوحوش الضارية التي اتخذتها لها داراً تقيم فيها هي وأولادها ، كأنما هي عرين لها ، يملأ النفوس رعباً وفزعاً .

وفي مثل هذا يقول سويد بن أبي كاهل اليشكري :[1]

كم قطَعنا دون سَلْمى مَهْمَهاً ... نازحَ الغَوْرِ إذا الآلُ لمَعْ [2]
في حَرُورٍ يُنْضَجِ اللحمُ بها ... يأخذُ السائرَ فيها كالصقَعْ [3]
وتخطَّيْتُ إليها مِن عِدَى ... بِزَماعِ الأمرِ والهمِّ الكَنِعْ [4]
وفَلاةٍ واضحٍ أقْرابُها ... بالياتٌ مثلُ مُرفَتِّ القَزَعْ [5]
يَسْبَحُ الآلُ على أعْلامِها ... وعلَى البيدِ إذا اليومُ مَتَعْ [6]
فرَكِبْناها على مَجْهُولِها ... بِصِلابِ الأرضِ فيهنَّ شَجَعْ [7]

وشاعرنا هذا في حديثه عن بُعد حبيبته يقول إن بينه وبينها قفاراً

---

(١) المفضليات ، ص ١٩٣ ، ب : ٢٠ - ٢٥ .

(٢) المهمة : القفر . النازح : البعيد . الغور : معظم بعده . الآل : السراب

(٣) الحرور : الريح الحارة التي تهب بالنهار ، أما السموم فتكون بالليل والنهار جميعاً . الصقع : حرارة تصيب الرأس .

(٤) عدى : الاعداء . زماع الأمر : الجد فيه . الكنع : الذي يلازم ولا يفارق .

(٥) الأقراب : الخواصر ، وهي هنا تشبيه ، أراد جوانبها وأطرافها التي هي بمنزلة الخواصر من الناس . المرفت:المتكسر المتحطم . القزع : جمع قزعة وهي بقايا تبقى من الشعر في الرأس ، شبه بها علامات الفلاة .

(٦) الأعلام : الجبال . البيد : جمع بيداء وهي القفر . متع اليوم : ارتفعت شمسه .

(٧) ركبناها على مجهولها : سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها . بصلاب الارض : بخيل صلاب الحوافر ، وأرض الفرس : حوافرها . الشجع : جنون من النشاط .

كثيرة ، مترامية الأطراف ، يلمع فيهـــا السراب ، حين يشتد الحر ، وتهب الريح فيها ساخنة ، وتكاد شدة الحرارة تنضج اللحم ، وتصيب من يسير فيها بضربة شمس توشك أن تقضي عليه ، وهذه المهامـــة الواسعة مملوءة بالأعداء الذين لا بد لاتقائهم من أخذ الحيطة ، والاستعداد لملاقاة الخطر ، وتلك القفار الشاسعة كلها مرتفعات ومنخفضات ومتعرجات ، ومعالمها بالية لا يستطيـع السائر أن يهتدي بها ، ويغطي هضابها ووديانها السراب حين ترتفع الشمس ، وتزداد اللهفة للشرب من شدة العطش، مما يجعل السفر في منتهى المشقة والألم، ولكن المضطر لا بد له من تجشم الصعاب ، وتعسف السير في مجاهل مسالكها وأعلامها .

وهـــذه الصحراء الواسعة النائية الجهات ، مملوءة بشتى الظواهر الطبيعية التي تتعاورها على اختلاف فصول السنة ، تبعاً للارتفـــاع والانخفاض ، ولئن كان الحر بها شديداً في الصيف فهناك بعض الأمكنة تهطل فيها الأمطار المصحوبة بالبرق والرعد ، وبخاصة في أعالي الجبال ، ومما قيـل في ذلك ما ورد لامرىء القيس ، إذ يقول [1] :

أصاحِ ترَى بَرْقاً أُريكَ وَميضَه ... كلَمْعِ اليدين في حَبِيٍّ مُكَلّلِ [2]
يضيءُ سَنَاه أو مَصابيحُ راهبٍ ... أمَالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفتَّلِ [3]
قَعدتُ له ، وصُحبتي بين ضارجٍ ... وبين العُذَيب بُعْدَ ما مُتَأمَّلِ [4]
عَلاَ قطَناً بالشَّيْمِ أيْمَنُ صَوْبِهِ ... وأيْسَرُه علَى السِّتَار فيَذْبُلِ [5]

(١) المعلقات : دار المعارف سنة ١٩٦٣ .
(٢) وميضه : بريقه ، كلمع اليدين : حركتهما .حبى: سحاب. مكلل : بعضه فوق بعض .
(٣) السنا : الضوء . أما السناء بالمد فهو المجد والشرف . السليط : الزيت (عند عامة العرب) ، ودهن السمسم (عند اهل اليمن) . الذبال : جمع ذُبالة وهي الفتلة والجمع : فتائل .
(٤) معناه : قعدت لذلك المطر أنظر من أين يجيء المطر . وضارج والعذيب : موضعان . بعدما متأمل : اي يا بعد ما تأملتُ أي تبينت . وما اسم موصول بمعنى الذي . أو ما زائدة ، ومتأمل مخفوض باضافة بعد إليه .
(٥) قطَن : جبل في أرض بني أسد . الشيم : النظر إلى البرق أين هو ، يقال : شِم البرق أي انظر أين هو . الستار ويذبل : جبلان . الصوب : نزول المطر .

فأضحى يَسُحُّ الماءَ من كل تَلْعَةٍ ... يَكُبُّ على الأذقان دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (١)
ومَرَّ على القَنَانِ من نَفَيانِه ... فأنزلَ منه العُصْمَ من كل منزلِ (٢)
وتيماءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نخلةٍ ... ولا أُجُماً إلاّ مَشيداً بجَنْدَلِ (٣)
كأن ثَبيراً في عَرانينِ وَبْلِهِ ... كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ (٤)
كأنَّ ذرا رأسِ المُجَيمِرِ غُدوةً ... من السيلِ والغُثّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ (٥)
وألقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليَمانيِّ ذي العِيابِ المُحَمَّلِ (٦)
كأنَّ مَكاكيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً ... صُبِحْنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلْفَلِ (٧)
كأنَّ السباعَ فيه غَرقَى عَشيَّةً ... بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنْصُلِ (٨)

---

(١) يسح : يصب . التلعة : مسيل الماء . الأذقان : شجر . ويكب على الأذقان : معناه يقلع الشجر . الدوح : العظام من الشجر ، واحدته دوحة . الكنهبل : شجر من أعظم العضاة ، وواحد العضاة عِضَة .

(٢) القنان : جبل بني أسد . النفيان : أصله ما تطاير عن الرشاء عند الاستقاء ، وهو هنا ما شذّ عن معظمه . العصم : تيوس الجبال ، واحدها أعصم ، وهو الذي يخالط بياضه حمرة .

(٣) تيماء : قرى بالحجاز معروفة. الأجم والآجام: البيوت المسقفة، يقصد أن هذا السيل مر كذلك بتيماء ، فاقتلع جذوع النخل ، وجميع البيوت إلا ما كان منها مشيداً بالحجارة والجِص .

(٤) ثبير : جبل بمكة . عرانين : أوائل . الوبل : المطر العظيم ، الشديد الوقع . البجاد: كساء للأعراب من وبر الابل وصوف الغنم مخطط . مزمل : ملتف ، يريد أن الجبل حينما غطاه الماء كان يشبه شيخاً في كساء مخطط وذلك لأن رأس الجبل يضرب إلى السواد والماء حوله أبيض.

(٥) المجيمر : أرض لبني فزارة . الغثاء : ما يحمله السيل ، فلكه مغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٦) صحراء الغبيط ، أرض بني يربوع . بعاعه : ثقله . العياب : الحقائب ؛ جمع عيبة . يقصد أنه ألقى بمياهه فخرج بسببه نبات وزهر مختلف ألوانه ، كاختلاف الوان الثياب اليمانية حين ينشرها التاجر فيكون بعضها أحمر وبعضها أصفر وبعضها أخضر .

(٧) مكاكي : جمع مُكّاء وهو طائر . الجواء : البطن من الأرض العظيم ، وقيل هو ما اتسع من الأرض . وقد يكون جمعا واحده جَوّ . صبحن : شربن من الصبوح . السلاف : أول ما يعصر من الخمر . والرحيق : صفوة الخمر . والمفلفل : الذي قد ألقيت فيه التوابل . يقصد أن الطيور كانت تغرد كأنها سُكارى من الخمر ، وذلك لأن الطيور حينما ترى الخصب والمطر تفرح وتشدو كأن كلا منها شارب يُغني ، فهي لا تغرد إلا في الخصب .

(٨) العنصل : بصل بري يعمل منه خل شديد الحموضة لا يقدر على أكله . والأنابيش : جماعات من العنصل يجمعها الصبيان ، ويقال : الأنابيس : العروق ، وسميت أنابيس ←

وهنا يصف الشاعر البرق بأنه كان يلمع وسط السحاب ، في سرعة خاطفة كحركة اليدين ، ويرسل ضوءه في الجهات كأنما هو مصباح قوي ملىء زيتاً ، وأخذ الشاعر يتأمل السحاب فإذا بــه ينزل مطراً مدراراً ، ويجري على الأرض سيلاً جارفاً يقتلع الأشجار والمنازل ، ويخرج الوحوش من أوكارها ، فتجري هاربة تبحث عن مأوى بعد أن دمر السيل مواطنها ، ولكنهــا لا تفلت من شدة السيل وقسوته ، فيجرفهـــا في تيارها ، وتلقي حتفها ، وُترى بعدُ من مخلفات السيل ضمن الغثاء الذي ملأ الأرجاء ، ولكن الطيور فرحت بــه وابتهجت ؛ ففي الصباح الباكر أخذت تغرد وتشدو بأعذب الألحان ، وقد كان حظ هذا الوادي الذي فاض بسيله ، أن ازدهر بالخصب ، فامتلأ بالنبات والأزهار ، وعمت الفرحة جميع الناس .

فاذا ما أردنا تصويراً للحيوانات التي بصحراء الجاهليين ، وجدنا شعراءهم قد أتوا بأوصاف جميع هذه الحيوانات ، وبخاصة ما كان شديد الصلة بحياتهم منها . فالخيل والإبل ، قــد كان لهما أكبر الأثر في حياتهم ، إن في السلم ، وإن في الحرب ، فأكثروا فيهما القول ، حتى وصفوا جميع أجزاء أجسامها ، وصوروا كل أحوالهـــا . وتكاد جميع القصائد الطوال من أشعار الجاهليين لا تخلو من أوصاف لهما . ومن القصائد التي صورت الإبل بجميع جزئياتهـــا صغيرها وكبيرها معلقتا طرفة ولبيد ، وقد بدأ طرفة حديثه عن ناقته بأنها هي التي تنسيه الهم ، فكلما نزل بساحته كرب أو غم، التجأ إليها ، فتُذهبه عنه بسرعة ، إذ سرعان ما تحمله وتنتقل بــه من مكان إلى آخر ، فيرى من المظاهر المختلفة ما يبعث في نفسه الراحة والمتعة ، ويؤكد ذلك بأنهــا ذلول مطيعة ، تبعث في نفسه الامن والطمأنينة ، وهو على ظهرها ، لانهــا قوية ، صبور على السير ، في كل الاوقات ، وفي جميع الجهــات ، لا تمل السفر ليلاً

← لأنها تنبس أي تخرج من الأرض . الأرجاء : النواحي والجوانب واحدها رَجاً . وهنا يشبه السباع الغرقى بتلك الأنابيش من العنصل .

ولخفاف بن ندبة أبيات في مثل معنى أبيات امريء القيس مذكورة في الأصمعيات : دار الكتب ١٩٦٤ ص ٢٥ ب : ٢٩ - ٣٨ .

أو نهـاراً ، وتجري في الارض السهلة والصلبة ، وفي الطرق معبّدة كانت او مهجورة ، معروفة أو مجهولة ، وذلك لانها تعيش على أحسن الغذاء، ومعتنى بها في طعامها وشرابها أشد الاعتناء ، فجسمها موثق ، محكم العضلات ، متين البنيان ، وأخذ يصف كل جزء من جسمهـــا ، مهما كان ، فيقول مثلا في فخذيها :

لها فخذان أُكمل النَّحْضُ فيهما كأنهـما بابا مُنيفٍ مُمَرَّد

فلحم فخذيها مكتمل متين ، وقد طال فخذاها والتفّا في قوة واكتناز وتماسك ، كأنهما بابا قصر مشيد عال ، ويقول في رأسها :

وجمجمة مثل العَلاةِ كأنمـا وَعَى الملتَقَى منها إلى حرف مِبْرَدِ

فجمجمتها صلبة مثل السِّنْدان ، وقد اجتمع عظمها وتماسك ، والتأم في قوة وصلابة وفي غير نتوء كالتئام المبرد من تحت حزوزه. وعن وجهها يقول:

ووجْهٌ كقرطاس الشآمي ومِشفرٌ كسَبْتِ اليماني قَدُّه لم يُجَرَّد

أي أن وجهها عتيق ، ليس فيه شعر ، أبيض ناعم الملمس كأنه قرطاس شآمي ، ومشافرها أي شفاهها حسنة الخلقة، جميلة المنظر ، ليس فيها مَيْل، ولا اعوجاج ، ولا خلل ، بل فيها تناسق وجمال . ويقول عن عينيها :

وعينان كالماويتـين استَكَنَّتا
بكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

فشبه عينيها بالمرآتين ، لنقائهما وصفائهما ، وذلك لأنهما مصونتان ، إذ أن كلا منهما قد استقرت في موضع متين حصين ، فمقلة العين وسط عظام متينة ، بحيث ترى كأنها نُقْرة ماء في كهف بصخرة صلبة، ويقول عن هذين العينين:

طَحُوران عُوّارَ القَذَى فتَراهما كمَكْحُولتَي مَذْعورةٍ أمّ فرقَدِ

فكل منهما تطحر عوار القذى أي ترمي الرمد والوسخ ، فعينها صحيحة نظيفة ، ولذلك تُرى كل عين قويةً جميلة كأنها عين بقرة وحشية في حـــال

ذعر ، ولها ولد ترعاه ، والمعروف أن حدة النظر والرشاقة لا تظهران في البقرة الوحشية أو الظبية إلا إذا كانت مذعورة ، وهي ذات ولد . ولا شك أن ذلك يدل على قوة الملاحظة عند الشاعر ، وخبرته الدقيقة بأحوال الحيوانات في الصحراء . وهكذا استمر الشاعر يصف فيها جسمها بجزئياته كلها ، حتى إنه لم ينس ذَيلها ، ولا الشعرات التي تحت لحييها ، فيقول عن شعرات ذيلها بعد أن وصفه :

كأن جناحَيْ مَضْرَحِيٍّ تكنَّفا حِفافَيه، شُكّا في العَسيبِ بِمِسْرَدِ

أي إن جانبي ذيلها عن يمينه وشماله يشبهان جناحي المضرحيّ وهو العتيق من النسور ، فذيلها سابغ كثير الهُلْب ، وشعره قوي متين كأنما غُرِزَ في العسيب بمسرد ، أي أُدخل في عظم الذنب بمخصف . ويقول عن شعرات لحييها :

صُهابيّةُ العُثْنُونِ مُوجَدَةُ القَرَا بَعيدة وَخْدِ الرِّجل مَوّارة اليد [1]

أي أن عثنونها وهو ما تحت لحييها من الشعر ، يضرب لونه إلى الصُّهبة وهي الحمرة . وهذا يدل على أن الشاعر كان شديد التأثر بناقته ، كثير التأمل فيها ، حتى أثارت هذه الشعيرات الدقيقة شاعريته ، فانطلق مصوّراً لها .

أما لبيد فقد تحدث كذلك عن ناقته من حيث السرعة، واحتمال الأسفار، وأعضاء جسمها ، ولكنه في تصوير سرعتها يقارنها مرة بأتان يطاردها فحل قد اعتاد مطاردة الفحول ، فأثر ذلك في جسمه ونشاطه وسرعته ، وأخذ يعلو حدب الإكام ، وكان الغبار يرتفع في الفضاء من أثر جريهما ، كأنه دخان نار ساطعة قد هبت عليها ريح الشمال ، واستمرا على ذلك حتى أضناهما التعب ، واشتد بهما العطش ؛ ومرة أخرى يقارنها ببقرة وحشية قد أكل

---

(١) القرا : الظهر . موجدة : شديدة موثقة . الوخد : أن تزج بقوائمها وتستعجل. موارة اليد : يدها ليست بكزة ولكنها سريعة الحركة .

السبع ولدها ، فذعرت ، فأخذت تجري بين القيافي والقفار ، وتسمع صوت صياد ، فتمتلىء رعبا ، وتزداد سرعة ، ويحس الصائد أنه لا أمل له في أن ينالها بسهامه ، فيرسل وراءها كلابا مسترخية الآذان ، معوّدة للصيد ، فلحقتها الكلاب ، فرجعت البقرة عليهن تطعنهن لتطردهن عن نفسها .

والشاعر في هذا الوصف قد أفادنا بهذا الاستطراد، بتصوير حمر الوحش، والبقرة الوحشية ، وكلاب الصيد . وهذه الأوصاف تنبئنا عن أحوال هذه الحيوانات وطبيعتها ، كما تدل على دقة الملاحظة ، وقوة الإحساس الشعري عند الشاعر الجاهلي .

أما الخيل ، فما أكثر الحديث عنها في الشعر الجاهلي ، سواء في مجال الصيد ، أم في مجال الحرب،وكلاهما يجيء في معرض الفخر بالفتوة والبطولة ، ومن خير الأمثلة في وصف خيل الصيد ما قاله امرؤ القيس عنها في معلقته ، ومن أمثلة ما جاء في وصف خيل الحرب ، ما ورد للمزرد [١] عنها ، فقد أجاد في وصفها ذكوراً وإناثا . وقد اشتهر بنعت الخيل من الشعراء : طفيل الغنوي ، وأبو دؤاد الإيادي ، والنابغة الجعدي .

ومما جاء في وصف النعام ما قاله علقمة [٢] الفحل عنها في معرض حديثه عن الناقة : —

كأنها خاضبٌ زعْرٌ قوادمُهُ — أَجْنَى له باللِّوَى شَرْيٌ وتَنّومُ [٣]
يظلّ في الحنظل الخُطْبانِ يَنْقُفُهُ — وما استَطفَّ من التَّنّوم مَخْذُومُ [٤]

---

(١) راجع شعر الحرب ـ الجزء الاول ـ للمؤلف .

(٢) المفضليات ، ص ٣٩٩ ب : ١٨ ـ ٣٠

(٣) الخاضب : الظليم قد احمر جلده وساقاه ، والظليم : ذكر النعام ، وتشبه به الناقة في السرعة . القوادم : ريشات في مقدم الجناح . أجنى النبات : أدرك أن يجنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشري : شجر الحنظل ، والظليم يأكله . التنوم : شجر ورقه يشبه شجر الآس ينحت ورقه في القيظ ويرب في الشتاء .

(٤) الخطبان : الحنظل الذي فيه خطوط تضرب إلى السواد ، وهو أشد ما يكون مرارة . ينقفه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع . مخذوم : مقطوع ليأكله .

فُوهُ كَشَقِّ العَصَا لأياً تَبَيُّنُهُ   أسَكُّ مايَسمعُ الأصواتَ مَصلُومُ (١)
حتى تَذَكَّرَ بَيْضاتٍ وهَيَّجَهُ   يومُ رَذاذٍ عليه الريحُ مَغْيُومُ (٢)
فلا تَزَيُّدُهُ في مَشْيِه نَفِقٌ   ولا الزَّفيفُ دُوَينَ الشد مَسْؤُومُ (٣)
يَكاد مَنْسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ   كأنَّه حاذِرٌ للنَّخْسِ مَشْهُومُ (٤)

وضاعَةٌ كَعِصِيِّ الشَّرْعِ جُؤْجُؤُهُ
كأنه بِتَنَاهي الرَّوض عُلْجُومُ (٥)

يأوي إلى حِسْكِلٍ زُعْرٍ حواصِلُهُ
كأنهن إذا بَرَكْنَ جُرثُومُ (٦)

حتى تَلافَى وقرنُ الشمس مرتفعٌ
أُدْحِيَّ عِرْسَيْن فيه البيضُ مَركُومُ (٧)

---

(١) فوه كشق العصا : أي لاصق ليس بمفتوح . لأيا : بطيئا وبصعوبة . تبينه : تستبينه ، أي لا تظهر لك إلا بمشقة . أسك : أصم ، أو صغير الأذن لاصقها بالرأس ، مصلوم : مقطوع الأذنين .

(٢) هيجه : أثاره . رذاذ : مطر خفيف . مغيوم : فيه غيم . يقصد أن هذا الظليم كان يرعى الخطبان والتنوم ، وفاجأه مطر خفيف في يوم غائم فيه ريح فتذكر بيضة ، فراح يجري إلى هذا البيض قبل أوان الرواح .

(٣) التزيد : سير سريع . نَفِق : سريع الذهاب . الزفيف : دون الشد قليلا . مسؤوم : مملول . أي إنه لا يسأم الزفيف .

(٤) منسمه : ظفره . يختل : يشك . مشهوم : فزع مروع . يقصد أنه كان سريع الجري، يزج برجليه زجا شديدا ، ويخفض عنقه فيكاد منسمه يشك عينيه .

(٥) الوضع : عدو سريع من عدو الإبل . والتاء في وضاعة للمبالغة كعلامة ونسابة ، وصف للظليم . الجؤجؤ : الصدر . الشرع : الأوتار ، واحدها شرعة . العصي : البربط ، وهو عود الغناء . شبه صدر الظليم بالبربط في تقوسه . التناهي : جمع تنهية وهي الأماكن المطمئنة ينتهي إليها الماء . العلجوم : البعير الطويل المطلى بالقطران .

(٦) الحسكل : الفراخ . جرثوم : جمع جرثومة وهي أصول الشجر .

(٧) تلافى : تدارك . عرسين : أي هو ونعامته . الأدحي : مبيض النعام . مركوم : موضوع بعضه فوق بعض .

يوحي إليها بإنقاض ونقنقة كما تراطن في أفدانها الروم [١]

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه
بيت أطافت به خرقاء مهجوم [٢]

تحفه هقلة سطعاء خاضعة
تجيبه بزمار فيه ترنيم [٣]

يضرب الشاعر هنا مثلا لسرعة الناقة ، بسرعة هذا الظليم ، فيحدثنا عن أوصافه ، وطبيعته ، فهو قد اكتمل جسماً وقوة ، وتوفر له الغذاء الجني الشهي ، ويتعرض لوصف فمه ، وأذنيه ، وساقيه ، ويذكر أن من طبيعته الاهتمام بالبيض، وبخاصة في أيام المطر، فاذا أحس أن المطر وشيك الحدوث، أسرع في الرواح ، ولو كان في غير ميعاد الإياب ، وتزداد سرعته ، إذا كان بعيداً عن مبيضه ، أو إن بدأ سقوط المطر ، وفي جريه السريع ، لا يمل ولا يشعر بالتعب ، بل يضاعف من سرعته وتزيد حركة رجليه ورأسه ، انخفاضاً وارتفاعاً ، حتى ليكاد منسمه يشك عينه ، وكلما ازداد جريه ، انتفخ صدره فيتراءى كأنه بربط ، ويظل يجري ويجري ، ليصل إلى فراخه، وينقذ بيضاته، فتداركها ، وحفظها، ثم نادى نعامته بأصوات معينة لم يفهمها الشاعر فكانت في سمعه كأنها رطانة الروم في قصورها ، وأخذ الظليم برأسه الصغير ، وعنقه الخفيف ، يرفع جناحيه ويخفضها بسرعة ، فجاءت اليه نعامته ، وقد ردت عليه بصوت الأنثى فيه نغم وترنيم .

وهذا وصف بديع لهذا النوع من الحيوان، وتصوير لطيف لبعض عاداته،

---

(١) يوحي اليها : يصوت لها فتفهم عنه . الإنقاض : التصويت . النقنقة : صوت الظليم . الأفدان : القصور ، جمع فدن .

(٢) الصعل : الخفيف الرأس والعنق . خرقاء : حمقاء . مهجوم: ساقط مهدوم، صفة للبيت، يقصد أن هذا الظليم يرفع جناحيه في عدوه ويحطمها ، فكأنه بيت شعر أو صوف ترفعه امرأة حمقاء ، فتى ترفعه يسقط .

(٣) تحفه : تحف الظليم . هقلة : نعامة . سطعاء : طويلة العنق . خاضعة : تميل رأسها للرعي . الزمار : صوت أنثى النعام . والعرار : صوت الذكر .

وقد أشار فيه الشاعر إلى معرفته بشيء عن الروم مما يدل على الصلة بينهم وبين العرب منذ الجاهلية .

ولو أردنا أن نستقصي كل ما قيل عن الحيوانات والطيور والحشرات في الشعر الجاهلي لطال بنا البحث والدرس ، ويكفينا أن نذكر أنه قد ألفت في هذا الموضوع كتب ، وقام فيه بعض الباحثين بأبحاث ودراسات مختلفة .

واذا اتجهنا نحو الفخر نجد أنه قد ملأ الشعر الجاهلي، بل إن معظمه يدور حول التغني بالأمجاد الشخصية والقبلية ، ومن خير الامثلة في ذلك معلقة عمرو ابن كلثوم ، ومعلقة الحارث بن حلزة ، ومعلقة عنترة العبسي ، وكثير من قصائد طرفة بن العبد ، وعامر بن الطفيل ، وعبيد بن الأبرص ، والحصين بن الحمام المري . وكان الفخر عادة يقوم على التغني بالبطولة والشهامة ، وكثرة الحروب ، وشن الغارات ، والانتصار فيها ، والقوة ، والعَدَد ، والخيل والإبل ، والسلاح ، وإثارة الفزع في نفوس الاعداء، ومنازلة الملوك والرؤساء؛ وبالأصل ، والحسب ، والنسب ، والآباء ، والاجداد ، وما كان لهم من مفاخر وأمجاد ، وأصالة الرأي ، وسداد القول، وبالمحبة والصفاء بين العشيرة، وسد حاجة المحتاج منهم ، وتحمل الغنيّ أعباء القبيلة ، ورعايته للفقراء منها، والصفح فيما بينهم عن هفوات بعضهم ، وعدم التفاخر فيما بينهم ، وتضامنهم، وعظم المجالس ، واحترامهم ، وبعدهم عن الفحش ، والصغار ، وبشرب الخمر ، والتفاني في شربها وإسقائها للآخرين ، والتضحية في سبيلها بأكرم الاموال ، وأغلى الممتلكات ، وبالطيب ، وطول الثياب ، ولعب الميسر ، والقمار ، وعقر النوق ، والتباري في عقرها ، واكرام الضيفان ، واتساع النادي ، وكثرة الجفان وبخاصة في أوقات القحط ، والشدة، والجود، والسخاء عن بذخ وإسراف ، وبحماية الجار ، والمحافظة على شرفه ، وأمواله؛ وكذلك اللاجىء ، وإغاثة الملهوف ، وتلبية النداء في غير ما توان أو تلكؤ . كما تفاخروا بالفصاحة والبيان، وجيد القول ، وروائع الشعر، والغلبة في المناقشة والجدال .

ومن أمثلة الفخر ما جاء في قصيدة لسُوَيد بن أبي كاهل اليشكري، يتغنى بأمجاد قومه، إذ يقول: [1]

من أُناسٍ ليس من أخلاقهم ... عاجل الفُحش، ولا سوءُ الجَزَع [2]
عُرُفٌ للحق، ما نَعْيا به ... عند مُرّ الأمر، ما فينا خَرَع [3]
وإذا هبَّت شَمالاً أطعَمُوا ... في قُدورٍ مُشبَعَاتٍ لم تُجَع [4]
وجفانٍ كالجَوَابي مُلِئت ... من سمينات الذُّرا فيها تَرَعْ [5]
لا يخافُ الغدرُ مَنْ جَاوَرهم ... أبداً منهم، ولا يخشى الطَّبَع [6]
ومساميحُ بما ضُنَّ به ... حاسرو الانفُس عن سُوء الطَّمَع [7]
حسنو الاوجُه بيضٌ سادة ... ومراجيحُ إذا جَدَّ الفَزَع [8]
وُزُن الاحلام إنْ همْ وازَنُوا ... صادقو البأسِ إذا البأسُ نَصَع [9]

---

(١) المفضليات، ص ١٩٤، ب: ٣٢ - ٤٤.

(٢) لا يقصد الشاعر أن يقول انهم لا يعجلون بالفحش كما يعجل غيرهم، وانما يقصد أنهم لا فحش عندهم البتة، ولا يجزعون المصيبة.

(٣) الخرع: اللين والضعف. أي لا يستثقلون الحق عند الشدائد، لأنهم شجعان، وليس فيهم ضعف ولا جبن.

(٤) شمالا: أي ريح الشمال، يقصد أوقات القحط والمجاعة. مشبعات. مملوءات. لم تجع: لا تخلو من الطعام أبداً.

(٥) الجفان: جمع جفنة وهي إناء الطعام. الجوابي: جمع جابية، وهي الحياض الكبار التي يجمع فيها الماء. الذرا، جمع ذروة، والذروة من كل شيء أعلاه، ويريد بها أسنمة الابل. ترع: امتلاء وشبع، يقصد تشبع الآكلين وترضيهن.

(٦) الطبع: تلطخ العرض؛ ويقصد به هنا كل عيب. أي أن جارهم آمن مطمئن، في حفظ ورعاية واحترام.

(٧) مساميح: أجواد. حاسرو الانفس: كاشفوها، أي يبعدون أنفسهم عن الطمع، أي هم كرام أجواد، يُعطُون ولا يأخذون.

(٨) حسنو الأوجه: أي كلهم طهارة وشرف، او بشاشة وحسن لقاء. مراجيح: راجحو القلوب: أي ثابتون، لا يستخفهم الفزع، لأنهم ليسوا بجبناء.

(٩) الأحلام: العقول. أي هم ذوو رأي سديد، يقلبون الامور على وجوهها، ثم يبدون أرائهم فتجيء محكمة سديدة لحسن عقولهم واتزان تفكيرهم. نصع: ظهر واتضح. أي هم أقوياء أبطال صادقون في وقت الشدائد.

وليوثٌ تُتَّقى عرَّتُهـا ساكنو الرِّيح إذا طارَ الفزَعْ[1]

فَبِهِمْ يُنْكى عَدُوٌّ وبِهِمْ يُرْأبُ الشعبُ إذا الشعبُ انصَدَعْ[2]

عـادةٌ كانت لهمْ معلومةٌ في قديم الدهرِ ليستْ بالبِدعْ[3]

وإذا ما حُمّلُوا لم يَظْلَعُوا وإذا حَمَّلْتَ ذا الشّفِّ ظَلَعْ[4]

صالحو أكْفائِهم خُلاَّنُهُمْ وَسَراةُ الاصلِ، والناسُ شِيَعْ[5]

وكان الهجاء على عكس الفخر ، يعددون فيه عيوب الخصوم والاعداء ، فيذكرون ما في تاريخهم من مخاز ، وما نزل بهم من هزائم ، وما حل بهم من خسائر أو عار ، ويرمونهم بأقبح العادات ، وذميم الصفات ، وكثيراً ما كان يتخلل هجاءهم وعيد وتهديد ، وقد كان الهجاء يوجه إلى الاعداء في معرض الفخر ، أو في ثنايا المدح ، لان في تحقير الاعداء والحط من شأنهم رفعة للمفتخر أو للممدوح . وكان من أبرز ما هجا بـه الشعراء في العصر الجاهلي : الهزيمة في الحروب ، والجبن ، والضعف ، والفرار من الميدان ، والقتل ، والاسر ، والسبي ، ودفع الفدية ، والنفي من الموطن ، وخسة الاصل ، ولؤم الطبع ، والبخل ، والشح ، والحرص ، والاعتداء على الجار ، واللاجيء ، والهرب من الضيفان ، وعدم الوفاء ، وانكار الجميل ، وكفران المعروف . وأخذ الدية ، والجوع ، وسوء الغذاء ، وما كان العدو أو الخصم ليسلم من الهجاء والسب والذم مهما علا شأنه ، ولو كان ملكا ، وهجاء طرفة والمتلمس

---

(١) العرة : الأذى . ساكنو الريح : ثابتو الروع ، رزينون . الفزع : جمع فزعة ، وهو القطع المتفرقة من السحاب ، يشبه به خفاف القوم الذين ليست فيهم ركانة ولا رزانة .

(٢) نكيت العدو ، ونكيت فيه : أي أصبت منهم فأكثرت الجراح والقتل ووهنوا لذلك . الشعب : الصدع والتفرق ، وهو من الاضداد فيكون بمعنى الالتئام ايضاً . يرأب : يصلح .

(٣) البدع : الامور المستحدثة .

(٤) الظلع في الابل كالغمز في الخيل : عرج في مشيها . الشف : معناه هنا الفضل والزيادة. يريد أنهم اذا حُمّلوا أمراً يعجز عنه غيرهم من حمل دية او قري ضيف او فك أسير ، حملوه وحدهم ، واستقلوا به اذا عجز غيرهم عنه .

(٥) السراة : الاشراف . واحدهم سري . شيع : طوائف وفرق . يقصد انهم لا يخالطون ولا يصادقون الا الصالحين من أكفائهم .

لعمرو بن هند ملك الحيرة مشهور، وقد كان عمرو من أقسى الملوك، وأعنفهم. ويذكر الرواة لهما فيه، هجاء مؤلماً [١] عنيفاً. كما هجا عبدُ قيس بن خفاف البُرجمي النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ومن أمثلة الهجاء ما يقوله أوس بن غلفاء الهجيمي التميمي، في هجاء يزيد بن الصعق الكلابي، ومنه [٢]:

فأجْر يزيدُ مذموما أو انزِعْ على عَلَبٍ بأنفك كالخِطام [٣]
وإن الناس قد عَلِمُوك شيخاً تَهوّكُ بالنّواكةِ كلَّ عام [٤]
وإنك من هجاء بني تميم كمُزْداد الغرام إلى الغرام [٥]
همُ مَنُّوا عليك فلم تثبهم فتيلا غير شتم أو خصام [٦]
وهم ضربوك ذاتَ الرأسِ حتى بَدَتْ أم الدّماغ من العظام [٧]
فإنا لم يكن ضَبَّاءُ فينا ولا ثَقْفٌ ولا ابنُ أبي عِصام [٨]
ولا فَضْحُ الفضوح ولا شُتَيْمٌ ولا سَلْماكُ، صَمّي صَمَام [٩]

وكانوا يمدحون اعترافاً بجميل، أو شكراً لصنيع، او رغبةً في معروف كإطلاق سراح أسير، أو إشادةً بعمل جليل، أو حبّاً في العطاء والمنح. وقد اشتهر بالمدح ثلاثة من الشعراء الجاهليين، هم زهير بن أبي سلمى، والنابغة

---

(١) راجع ديواني طرفة والمتلمس.
(٢) المفضليات، ص ٢٢٨.
(٣) العلب: أن تؤخذ حديدة أو نحوها فتحمى ويكوى بها الأنف حتى يقشر ويبدو العظم. الخطام: حبل يوضع في أنف البعير لاذلاله.
(٤) التهوك: التحير والتردد، أو السقوط في هوة الردى. النواكة: الحمق.
(٥) الغرام: الشر الدائم. وذلك لأن يزيد بن الصعق كان قد هجا بني تميم.
(٦) تثبهم: تكافئهم أو تجازيهم. فتيلا: يقصد أدنى شيء.
(٧) ضربة ذات الرأس: أصاب أم رأسه. أم الدماغ: الجلدة التي تحيط بالدماغ وتجمعه.
(٨) ضباء: رجل من بني أسد كان جاراً لبني جعفر، فقتله بنو أبي بكر بن كلاب غدراً فلم يدرك بنو جعفر بثأره ولم يدوا ديته. يقصد أن يتهكم بهؤلاء، أي لست من هؤلاء الذين غدر بهم فذهبت دماؤهم هدراً.
(٩) هذه أعلام رجال. صمى صمام: يقال للداهية: «صمى صمام» مثل «قطامِ» وهي الداهية؛ أي زيدي.

الذبياني ، وأعشى قيس . وكانت المعاني التي تتردد في المدح من بين تلك التي كان الشعراء يتغنون بها في الفخر . ومن مدائح زهير بن ابي سلمى في هرم ابن سنان قوله :

لعَمْر أبيك ما هرم بن سلمى ... بِمَلْحِيٍّ إذ اللؤماء لِيمُوا (١)
ولا ساهِي الفؤادِ ولا عَيِيُّ الـ ... لِسانِ إذا تشاجرت الخصوم (٢)
ولكن عصمة في كل أمر ... يُطيف به المُخَوَّل والعَديم (٣)
متى تُسْدَدْ به لَهَوات ثغر ... يُشارُ إليه جانبُهُ سَقيم (٤)
مَخوفٍ بأسُه ، يَكلأكَ منه ... قَوِيٌّ ، لا ألفٌّ ولا سَؤوم (٥)
له في الذاهبين أُرومُ صِدقٍ ... وكان لكل ذي حَسَب أُرُوم (٦)
وعوَّدَ قومَه هرمٌ عليهِ ، ... ومن عاداته الخُلُقُ الكريم (٧)
كما قد كان عَوَّدَهُمْ أبوه ... إذا أزمت بهم سَنَةٌ أَزُوم (٨)
عظيمةُ مَغرَمٍ أن يحملوها ... تُهِمُّ الناسَ أو أمر عظيم (٩)
ليَنْجُوا من مَلاوِمِها ، وكانوا ... إذا شَهدوا العظائمَ لم يُليموا (١٠)

---

(١) ملحى : ملوم . أي إنه من كرام القوم ، البعيدين عن إتيان أي شيء يستحق اللوم .

(٢) ساهي الفؤاد : طائش. ولاعيى اللسان : فصيح بليغ . يقصد أنه عاقل فطن ، بعيد النظر حكيم . يمتاز بالقول الفصل . والحكمة والعقل .

(٣) عصمة : ملجأ وملاذ . يطيف به : يلجأ إليه. المخول : الغني. العديم: الفقير.

(٤) اللهوات : جمع لهاة، وهي مدخل الطعام في الحلق . يشار إليه : يهتم به . جانبه سقيم: يُخشى أن يأتي منه العدو .

(٥) يكلأك : يحفظك . ألفّ : ثقيل بطيء . سؤوم : ملول .

(٦) الذاهبين : السابقين من الآباء والأجداد . حسب : أصل كريم ، أروم : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٧) عود قومه عليه : جعل لهم عادة عليه .

(٨) أزمت : أصابتهم شدة . أزوم : صعبة شديدة .

(٩) عظيمة مغرم : غرامة عظيمة ، أي كبرت عليهم أن يحملوها ، فيحملها هرم . تهم الناس : تثير الهموم لديهم.

(١٠) الملاوم : جمع ملامة . لم يُليموا : أي لم يأتوا شيئاً يستحقون عليه أن يلومهم الناس.

كذلــك خِيمُهُمْ ، ولكل قوم إذا مَسَّتْهُمُ الضرَّاءُ خِــيمُ [1]

وكان الحزن يبدو عليهم واضحاً حينما يفقدون عزيزاً – وكل أفرادالعشيرة عزيز – فتتحرك الشاعرية ، وتعبر عن الأسى العميق الذي عمّهم ، والخسارة الفادحة التي نزلت بهم ، وبغيرهم ممن كان الفقيد ملاذاً لهم . من ذلك،ما ورد لسُعدى بنت الشمردل الجهنية في رثاء أخيها أسعد الذي قتلته بهزٌ من بــني سُلَيم بن منصور ، إذ تقول [2] :

فلتَبْكِ أسعدَ فِتْيةٌ بسَبَاسِبٍ ... أقْوَوْا وأصبحَ زادُهم يُتَمزَّعُ [3]
جادَ ابنُ مَجْدَعَةَ الكميُّ بنفسه ... ولقد يرى أن المَكَرَّ لأَشْنَعُ [4]
ويَلُمُّهِ رجُلاً يُليذُ بِظَهْرِهِ ... إبِلاً ، ونَسَّالُ الفيافي أرْوَعُ [5]
يَرِدُ المياهَ حَضِيرةً ونَفيضَةً ... وِرْدَ القَطاةِ إذا اسْمَألَّ التُّبَّعُ [6]
وبه إلى أُخْرَى الصحابِ تَلَفُّتٌ ... وبِهِ إلى المكروبِ جَرْيٌ زَعْزَعُ [7]
ويُكبِّرُ القِدْحَ العَنُودَ ويَعْتَلِي ... بِأُلَى الصحاب إذا أصاتَ الوَعْوَعُ [8]

---

(١) الخيم : الشيمة والطبيعة .

(٢) الأصمعيات ، ص ١٠٢ ، ب : ١١ - ٢٩ .

(٣) أسعد : أخوها . سباسب : جمع سبسب وهي المغازة. أقووا : نزلوا القواء وهو القفر، أو نفد زادهم . يتمزع : يتقسم .

(٤) ابن مجدعة : هو أخوها أسعد ، والظاهر أنه أخوها لأمها . الكمي : الشجاع . المكر: مصدر ميمي من الكر . أشنع : تفضيل قصد به الوصف أي شنيع .

(٥) يليذ : يحمي ويمنع . نسال من نسل ينسل أي أسرع ، أروع : رجل كريم ذو جسم وفضل وسؤدد وجمال .

(٦) الحضيرة : النفر يغزَى بهم ، العشرة فمن دونهم . النفيضة : الطليعة تتقدم الجيش فتنظر الطريق وتعرف ما فيه . ونصبا على الحال ، أي كافياً عن حضيرة ونفيضة ، أو نصبــا على نزع الخافض . اسمأل : تقلص وضمر . التبع : الظل ، لأنه يتبع الشمس . واسمئلاله : بلوغــه نصف النهار .

(٧) أخرى الصحاب : أواخرهم . زعزع : شديد .

(٨) القدح : من أقداح الميسر . العنود : الذي يخرج سريعاً معترضاً من بين القداح ، أو هو الذي يخرج فائزاً على غير جهة سائر القداح . يعتلي : يرتفع . ألَى الصحاب : أوائلهم ؛ أصلها « أولَى الصحاب » يقابل في البيت السابق « أخرى الصحاب » فخفف بحذف الواو . أصات : نادى ، يعني من الفزع . الوعوع : الجبان .

سَبّاقُ عاديةٍ وهادي سُرْيَةٍ ومُقاتِل بَطَلٌ وَداعٍ مِشْقَعُ (١)
ذهبتْ به بهزٌ فأصبَحَ جَدُّها يعلو، وأصبح جَدُّ قَوْمي يَخْشَعُ (٢)
أجعلْتَ أسعدَ للرماح دريئَةً هَبِلَتْكَ أمُّكَ أيّ جَرْدٍ تَرْقَعُ (٣)
يا مُطعِمَ الرَّكْبِ الجياعِ إذا هُمُ حَثُّوا المَطِيّ إلى العُلا وتَسَرَّعُوا
وتَجاهَدوا سيراً فبعضُ مَطِيِّهم حَسْرَى مُخَلَّمَةٌ وبعضٌ ظُلَّعُ (٤)
جَوّابُ أوديةٍ بغير صَحابةٍ كَشّافُ داوِيّ الظلام مُشَيِّعُ (٥)
إن تأته بعد الهدوء لحاجة تَدعو، يُجِبْكَ لها نجيبٌ أرْوَعُ (٦)
مُتَحلِّب الكفَّين أمْيَثُ بارِعٌ أنِفٌ طُوالُ الساعدين سَمَيْدَعُ (٧)
سَمْحٌ إذا ما الشَّوْلُ حارَدَ رِسْلُها واسْتَرْوَحَ المَرَقَ النساءُ الجُوَّعُ (٨)
فَوَدِدْتُ لو قُبِلَتْ بأسعدَ فِدْيةٌ مما يَضِنُّ به المصابُ المُوجَعُ

وهي بعد التعبير عن حزنها العميق لفقدها أخاها تبكي صفاته وأخلاقه

---

(١) العادية : الخيل تعدو . سُرية : السري وهو السير بالليل أي يهدي السارين ليلا . أو سُرْبة (بالباء الموحدة) وهي الجماعة ينسلون من العسكر فيغيرون ويرجعون ، أو الجماعة من الخيل ما بين العشرين الى الثلاثين . مسقع : مصقع وهو البليغ .

(٢) الجد : الحظ والعظمة.يخشع : يخضع ويذل .

(٣) الدريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها.هبلتك أمك : ثكلتك ، جرد: ثوب خلق ، تريد أنه جنى بقتله أخاها جناية لا يدري ما وراءها ، وفتق فتقاً يعجز عن إصلاحه .

(٤) تجاهدوا سيراً : اشتدوا في السير وأجهد كل منهم نفسه فيه . حسرى : معيبة . مخلفة : متروكة لتموت في الطريق . ظلع : جمع ظالع أو ظالعة : من الظلع ، وهو العرج والغمز في المشي .

(٥) مشيع : شجاع ، لأن قلبه لا يجعله يضعف أو يجبن ، فكأنه يشيعه ويقويه .

(٦) نجيب : كريم أصيل . أروع : سيد فاضل .

(٧) متحلب الكفين : جواد ، تسيل يداه بالعطاء . أميث : لين سهل ، يعني سمح العطاء . أنف : أبيّ يكره أن يضام . طوال : طويل شديد الطول . السميدع : الكريم السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكناف .

(٨) سمح : جواد . الشول : الابل التي شولت ألبانها أي ارتفعت . رسلها : لبنها . حارد : انقطع . استروح : تشمم . تعني أنه جواد كريم في وقت الجدب والأزمة .

وعاداته ، وكلها من المثل العليا التي كان العربي الجاهلي يعتز بها .

وكان الأسى يثير الشجون عندما تهيج ذكريات من فقدتهم القبيلة ، فيرثي الشاعر حينئذ هؤلاء الابطال السادة الكرام من قومه ، ومن أمثلة ذلك ما جاء لأبي دواد الإيادي ، إذ يقول [1] :

لا أعُدُّ الإقتارَ عُدْماً ولكن فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإعدامُ [2]
مِن رجالٍ مِنَ الاقارب فادُوا مِنْ حُذَاقٍ هم الرؤوسُ العِظامُ [3]
فَهُمُ لِلمُلائمينَ أناةٌ وعُرَامٌ إذا يُرادُ العُرَامُ [4]
وَسَماحٌ لَدَى السنينَ إذا مَا قَحَطَ القطر ، واستَقَلَّ الرِّهامُ [5]
ورجالٌ أبوهُم وأبي عَمْـ ـرو وكعبٌ ، بيضُ الوجوه حِسَامُ [6]
وشبابٌ كأنهم أُسْدُ غيلٍ خالطَتْ فَرْطَ حَدِّهِم أحْلامُ [7]
وكهولٌ بَنَى لَهُمْ أوَّلُوهُم مأثُراتٍ يَهابُها الاقوامُ [8]
سُلِّطَ الدهرَ والمَنُونُ عليهِمْ فَلَهُم في صَدَى المقابِرِ هَامُ [9]
وكذا كم مَصيرُ كل أُناسٍ سَوفَ ، حقاً ، تُبْليهِمُ الايامُ
فَعَلي إثْرِهِم تَسَاقَطُ نَفسي حَسَراتٍ وَذِكْرُهُمْ لي سَقامُ

---

(١) الأصمعيات : ص : ١٨٧ ب : ١٥ - ٢٤ .

(٢) الاقتار : قلة المال وضيق العيش . العدم والاعدام : الفقر .

(٣) فادوا : ماتوا ، يقال : فاد يفيد فيدا ، إذا مات . حذاق : قبيلة من إياد . العظام : الكبار .

(٤) الملائمون : الموافقون المخلصون . أناة : تأن ورفق وحلم ، وصف بالمصدر . العرام : الشدة والقوة والشراسة .

(٥) استقل : ارتحل . الرهام : الأمطار الضعيفة ، الواحدة رِهمة (بكسر الراء) ، يقصد القحط وامتناع المطر .

(٦) بيض الوجوه : أشراف كرام . حسام : أبطال شجعان ، قولهم فاصل.

(٧) غيل : أجمة ، وهي الشجر الكثيف الملتف . الحد : الحدة والغضب . وفرطها : غلبتها واسرافها . أي فيهم مع الغضب والحدة ، عقول راجحة ، وآراء سديدة .

(٨) كهول : شيوخ ، جمع كهل ، أولوهم : السابقون الأوائل منهم. يهابها : لا يصل إليها.

(٩) الهام : جمع هامة ، وكانوا يزعمون أن عظام الميت ، وقيل روحه ، تصير هامة فتطير، ويسمونه الصدي ، فنفاه الاسلام ، ونهاهم عنه .

والشاعر هنا كما نرى يذكر ما كان لهؤلاء السابقين من صفات ، واخلاق ، ومفاخر ، وأمجاد ، ويشيد بما كان لهم من حلم وروية مع الاصدقاء ، وشدة وبأس مع الاعداء ، وجود في أوقات الشدة والجدب ، وقوة ترهب الآخرين ، وعقول واسعة ، وآراء سديدة ، وما لهم من مآثر لا تنسى . وهذه المعاني ، سواء في الرثاء الفردي أو الجماعي ، هي نفسها مما كان يتردد في أغاني الفخر والمدح .

أما الاعتذار فكان قليلاً من شعرهم ، ويأتي عادة لإظهار الندم على فعل حدث ، او حال وقعت ، ويريد المعتذر أن يبرىء نفسه ، لينجو من اللوم ، أو يحاول إصلاح الحال ، بتفسير أو شرح معقول لها ، لكي يرجع الامور الى مجراها العادي ، وقد ورد في هذا الغرض أبيات لكثير من الشعراء ، ولكنه لم يحتل مكاناً هاماً في شعر كل منهم . وقد حللنا هذه الظاهرة من الناحية الحربية في شعر الحرب . ولم يكن لأحد من الشعراء الجاهليين باع في الاعتذار إلا النابغة الذبياني ، فقد أسهب فيه ، فاشتهر به ، حتى قيل عنه : إنه أضاف إلى الشعر فناً جديداً ، ويقصدون بذلك فن الاعتذار ، كأنه لم يكن موجوداً عند شعراء العرب قبل النابغة الذبياني . وحقيقة لقد أتى فيه النابغة بمعان رائعة ، وصور شعرية جميلة ، فقد كان ما دب بينه وبين النعمان بن المنذر من سوء تفاهم وقطيعة سبباً في إثارة شاعرية الاعتذار عند النابغة الذبياني ، فقال ، وأجاد ، حتى اعتبره النقاد ، مبدع هذا الفن. ومن اعتذارياته قوله :

أتاني أبَيْتَ اللعنَ أنك لُمْتني ... وتلك التي أهتم منها وأنْصَبُ [(١)]

فبتُّ كأنَّ العائداتِ فَرَشْنَنَي ... هَرّاساً به يُعلى فِراشي ويُقْشَبُ [(٢)]

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرءِ مذهبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغت عني خيانةً ... لَمُبلِغُك الواشي أغشُّ وأكذبُ

(١) أنصب : أتعب تعباً شديداً .

(٢) الهراس : شجر كثير الشوك . العائدات : الزائرات للمريض.فرشنني : جعلن لي فراشاً مبسوطاً . يقشب : يجدد .

ولكنني كنت امرءاً ليَ جانبٌ من الارض فيه مُستراد ومَذهَب[1]
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم أُحَكـَّمُ في أموالهم وأُقرَّبُ
كفعلك في قوم أراكَ اصطنعتهم فـلم تَرهُم في شكر ذلك أذنبوا
وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ
فـلا تتركني بالوعيـد كأنني إلى الناس مَطـْليٌّ به القار أجرب[2]
ألم ترَ أن الله أعطـاك سورة ترى كل مَلـْك دونها يتذبذب[3]
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّـه على شَعَثٍ أي الرجال المُهذّب[4]
فإن أكُ مظلوماً فعبـدٌ ظلمتَه وإن تكُ ذا عُتبى فمثلُك يُعتِب[5]

فالنابغة يقول للنعمان إن غضبه على النابغة وتوجيه اللوم إليه، يسبب له هماً وحزناً وتعباً ، حتى أصبح كالمريض الذي ينام على أشواك ، تتجدد من حين الى حين ، ثم يحلف له أن ما حدث ليس له أساس من الصحة وإنما محض كذب وافتراء اختلقه الواشون ليفسدوا ما بينهما . ثم يبين النابغة للنعمان أن ذهابه إلى الغساسنة ليس إلا لشكرهم اعترافاً بالجميل الذي أسدوه إلى النابغة، ومن يشكر صاحب الفضل لا يؤاخذ على شكره ، وإنما أنت أيها الملك لا يدانيك ملك آخر ، فليس هناك من الملوك من يشبهك او يناظرك ، فأبهتك وعظمتك وسلطانك تغطـّي على الآخرين ، وتخفى معالمهم ، كالشمس حينما تسطع تتلاشى أمامها جميع الكواكب . ثم يقول النابغـة للنعمان : أرجو ألا يكون في نفسك غضب عليّ ، كما أدعوك ألا تضمر لي تهـديداً ، وإلا كرهني الناس لانهم جميعاً يحبونك ، ونبذوني ، واجتنبوني كأني بعير أجرب قد طُلي بالقطران . ويستمر النابغة فيتضرع إلى النعمان قائلاً : إن ما بيني

---

(١) مستراد : مكان يذهب فيه الانسان كما يريد ، كناية عن اكرام الغساسنة له في ديارهم .
(٢) القار : القطران .
(٣) سورة : منزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل اليها .
(٤) شعث : فساد ونقص . تلمه : تجمعه وتضمه .
(٥) عتبى : رضا . يعتب : يعطي العتبى والرضا .

وبينك ليس إلا واحدة من حالتين : إما أن أكون مذنباً ، وإما أن أكون بريئاً ؛ فإن كنت مذنباً ، فأنا بشر ، وليس من البشر واحد كامل من جميع النواحي، فلكل انسان عيوب وهفوات ، وأنت أعظم من يعفو عن الذنوب، ويصفح عن الهفوات ، فانت أهل الرضا والإكرام، وإن كنت بريئاً ، فلست أنا إلا عبداً وللسيد حق التصرف في عبده ، وأنا راض بسيدي ، حبيب إليّ جميع تصرفاته ، ولا أبغي إلاّ رضاه ومسرّته .

وأما الغزل ، فقد كان فناً مطروقاً من جميع الشعراء ، حلّوا به قصائدهم ، فاتخذوه زينة لأشعارهم ، إذ جعلوه افتتاحيتهم على الدوام ، كأنما كان ألذ المشهيات ، يتناولها الآكل في بدء طعامه ، لتتفتح شهيته ، وتصفو نفسه ، فيقبل على الأكل برغبة قوية ، ويحس فيه اللذة والمتعة .

والغزل والتشبيب والنسيب ، ألفاظ مترادفة، ولكن بعض النقاد حاولوا أن يفرقوا بينها ، فقالوا :

الغزل : هو الاشتهار بمودة النساء ، وتتبعهن ، والحديث إليهن ، والعبث بذلك في الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة .

والتشبيب : ذكر المرأة في مطالع الكلام ، وما يتصل بذلك من ذكر الرسوم ، ومساءلة الأطلال ، توخياً لتعليق القلوب ، وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام ، وقد يذكر فيه ما يحاول المتيمون من العشاق ستره من المحبوبة كالوعد واللقاء .

والنسيب : هو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يصفه من التجني ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء .

والغزل في الآداب كلها ، حديث الهوى والحب، وتصوير عواطف الرجل ومشاعره نحو المرأة ، التي رأى فيها تمثالا للجمال الإنساني ، وهي في الوقت ذاته نصفه الذي يكمل حياته،وبها يتم ما يتمناه من راحة واستقرار وسعادة.

وقد احتل الغزل في الادب الجاهلي ، مكاناً ظاهراً ، وكان حظه فيه

عظيماً ، وقال فيه جميع الشعراء ، من اشتهر منهم ، ومن لم يشتهر ، واتفق الجميع فيه على جعله بدءاً لقصائدهم ، وسار كل منهم فيه حسب ما يحلو له من وصف الحبيبة ، وأثر حبها وفراقها في نفسه ، وما يعانيه من عشقه لها وهيامه بها . ولكن الظاهرة الواضحة في غزل الجاهليين ، أن الشعراء كأنما كانوا يتبارون في عرض محبوباتهم ، فحاول كل منهم أن يصورها في أجمل خلق ، وأحسن مظهر ، وإن اختلفوا في الاجمال والتفصيل ، أو في التصريح والتلميح .

وقد سار الشعراء الجاهليون جميعاً على تقليد التزموه في قصائدهم ، هو افتتاحها دائماً بالحديث عن الأطلال ، والوقوف عندها ، والبكاء لديها ، بسبب ما تثيره من الذكريات التي تثار لدى الشعراء عند ما يرون ما أصبحت عليه ديار حبيباتهم بعد أن هجرنها ، وقد كان لهم فيها معهن أوقات حلوة ، لا يُنسيها مر الزمن ، ولا تغيب ذكرياتها عن البال ، وإن تغيرت الديار إلى رسوم وأطلال . ولئن أردنا تعليلا لهذه الظاهرة ، فربما كان ذلك لأن رؤية الخراب بعد العمار ، والخمود بعد الحركة ، والوحشة بعد البهجة ، مما يحرك العواطف والوجدان ، ويثير الاحزان والاشجان ، وتبعث على تذكر ما كان لها ، وما حدث فيها ، فتهيج الذكريات،وتتمثل أمام القلب صور الماضي الحلوة ، فتطرب لها النفس وتهش ، وتستعيد مالها من لذة وبهجة ، فإذا الهدوء النفسي يعود ، والعين تكف عن الدموع ، وتتدفق الشاعرية ، وينطلق اللسان ، حاكياً ما يرى القلب من صور الجمال .

وقد وصف الشعراء الجاهليون جمال المرأة الجسمي ، كأنما كانوا يريدون أن تكون ماثلة أمام العيون فتسر برؤيتها ، وتنشرح النفوس بمنظرها ، وقد حاول كثير منهم أن يتتبع جسمها جزئية جزئية ، لترى بجمالها الكامل من ناصيتها إلى قدمها . ويندر أن نجد شاعراً جاهلياً قد خصص قصيدة طويلة بأكملها للغزل . وإنما الشائع أن القصائد الطويلة كانت كلها تبدأ بالحديث عن

الاطلال ورحلة الحبيبة ، ثم الحديث عن أوصاف هذه المحبوبة ، ولكن الشعراء كانوا يختلفون في ذلك طولاً وقصراً ، فمنهم من كان يسهب في هذه الاوصاف ، ومنهم من كان يوجز . ومن روائع الشعر الغزلي في الجاهلية ، قصيدة طرفة التي أولها :

أَصَحَوْتَ اليومَ أمْ شاقتْكَ هِرّ ومن الحُبّ جنون مُستَعِرّ
لا يكن حُبُّكَ داءً قاتلا ليس هذا منك ماوِيّ بِحُرّ

فقد تعرض فيها لاوصاف الحبيبة وجمالها الجسمي ، وما تعيش فيه من نعمة ورفاهية ، وتنقلاتها بين أنضر الجهات في كل فصل من فصول السنة ، وأثر فراقها في نفسه ، وما يحسه من اللوعة والاسى لبعدها ، وما يعتاده من خيالها . ومن الغزل الحسي ، تلك القصيدة التي تنسب إلى النابغة الذبياني إذ يقول فيها :

نظَرتْ بمقلة شادنٍ مُتَربّبٍ أحْوى أحَمّ المقلتين مُقلّدِ (١)
والنظمُ في سلكٍ يُزَيّن نحرَها ذهبٌ توقّدَ كالشهاب الموقَدِ (٢)
قامت تراءى بين سِجْفَيْ كِلّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالاسعَدِ (٣)
أو دُرّةٍ صَدَفيّةٍ غوّاصُها بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويَسجدِ (٤)
أو دُميةٍ من مَرْمَرٍ مَرفوعةٍ بُنيتْ بآجُرٍّ يُشادُ وقَرْمَدِ (٥)
سَقط النصيف ولم تُرِد إسقاطَه فتناولتْه ، واتّقتنا باليد (٦)

---

(١) الشادن : الشابّ من الظباء . مترِبب : محفوظ مصون معتنى به . أحوى : فيه حمرة إلى سواد . أحم : أسود . مقلد : جعلت له الحلى والزينة قلائد .

(٢) النظم : العقد الذي تلبسه .

(٣) السجف : الستر الرقيق . الأسعد : برج الحمل ، وتكون الشمس فيه على أكمل ضياء .

(٤) الدرة : اللؤلؤة . يهل : يرفع صوته بالتكبير .

(٥) الدمية : التمثال من المرمر . تشاد : تبنى وتطلى . قرمد : خزف مطبوخ .

(٦) النصيف : الخمار ، وهو نصف الثوب .

بمخضّب رَخْص كأنّ بنانَه   عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَد[1]
لو أنها عرَضتْ لأشمط راهب   عبدَ الإلهَ صَرُورةٍ مُتَعَبِّد[2]
لرنا لبهجتها وحسن حديثها   ولخاله رَشَداً وإن لم يَرْشُدِ[3]

وقد اشتهر امرؤ القيس بالإكثار من الحديث عن النساء ، وزاد عن غيره أنه كان لا يتورع عن ذكر مغامراتـــه في شعره ، فكان رائداً لعمر بن أبي ربيعة في هذه الناحية .

وفي تضاعيف الوصف الحسي لجسم الحبيبة كان كثير من الشعراء يصفون ما يحسونه من النشوة والبهجة حينما يؤخذون بجمال حبيباتهم ، وما يشعرون به من الالم والعذاب عند فراقهن ، من ذلك قول طرفة بن العبد :

جلَتْ بَرَداً فَهشَّ له فؤادي   فكدت إليه من شوق أطير

وقوله في قصيدة أخرى :

بلغــا خولةَ أني أرِق   ما أنام الليل من غير سَقَمْ
كلمــا نام خَلِيٌّ بالُــه   بِتُّ للهَمِّ نَجِيّاً لم أنَمْ
منعَ التغميضَ مني ذكرُها   فهي هَمّي وحديثي وسَدَمْ[4]

وفي بيتيه السابقين قال إن الحب قد يصل بصاحبه إلى حد الجنون ، وقد يصير داء قاتلا يودي بحياة العاشق المتيم .

ومع أن السمة العامــة للغزل الجاهلي كانت الناحية الحسية ، من وصف الجسد ، وأعضائه ، وما تتصف به الحبيبة من جمال خِلْقي ، فإننا نجد من بين الشعراء الجاهليين من أعجب بجمال الحبيبة الخُلُقي ، فأطرى ما تتمتع

---

(١) المخضب : الكف . رخص : لين . البنان : الاصابع . العنم : شجر لين الأغصان ، له ثمر أحمر مستطيل كالأصابع .

(٢) الراهب : المتعبد . أشمط: أشيب . صرورة : متبتل ، لم يرتكب ذنباً .

(٣) رنا : أدام النظر مع سكون الطرْف . يرشد : يكون في كمال العقل والصواب .

(٤) سدم : سقم وألم .

به من كريم الصفات ، وحسن الطبع ، وجميل العادات ، من ذلك ما ورد للشنفري إذ يقول [١] :

فيا جارتي وأنت غير مليمة ... إذا ذُكِرَت ، ولا بذات تَقَلَّتِ [٢]
لقد أعجبتني ؛ لا سَقُوطاً قِناعُها ... إذا ما مَشَتْ ، ولا بذات تلفُّتِ [٣]
تبيتُ بُعيدَ النوم تُهدي غَبوقَها ... لجارتها ! إذا الهديةُ قَلَّتِ [٤]
تَحُلُّ بمنجاةٍ من اللُّوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمَذَمَّةِ حُلَّتِ [٥]
كأنَّ لها في الارض نِسْياً تقُصُّه ... على أَمِّها ، وإن تكلِّمْك تبلَتِ [٦]
أُميمةُ لا يُخزي نثاها حَليلَها ... إذا ذُكِر النسوانُ عفّتْ وجلّتِ [٧]
إذا هو أمسى آبَ قُرَّةَ عَينِه ... مآبَ السعيدِ لم يَسَلْ أينَ ظلَّتِ [٨]

---

(١) المفضليات ، ص ١٠٩ ب ٥ - ١٢ .

(٢) مُليمة : أي تأتي ما تُلام عليه ، فتسبب اللومَ لنفسها ، وتجعل غيرها يلومها . تقلت : تبغّض وهو ضد التحبب أي لا تأتي عملا يسبب لها اللوم أبدا ، وليس فيها أية صفة مكروهة ، بل هي ، وأفعالها وصفاتها محبوبة محمودة .

(٣) أي لا يسقط قناعها لشدة حيائها . ولا بذات تلفت : لا تكثر التلفت ، فإنه من فعل أهل الريبة .

(٤) الغبوق : ما يُشرَب بالعشى . تهديه لجاتها : أي تؤثرها به لكرمها . إذا الهدية قلت: أي في زمن الجدب حين تنفد الأزواد وتذهب الألبان ويقل الغذاء .

(٥) بيتها : مفعول به لتحل (وهو فعل يتعدى بنفسه وبحرف الجر) وتحل معناه تسكن أو تنزل . منجاة : مفعلة من النجوة وهي الارتفاع ، يقصد أن موطنها طاهر شريف ، بعيد عن الشبهة .

(٦) النسي : الشيء المفقود المنسى . تقصه : تتبعه ، وتبحث عنه . أمها (بفتح الهمزة) قصدها الذي تريده . يقول : من شدة حيائها اذا مشت تنظر الى أسفل كأنها تبحث عن شيء فقدته ولا ترفع رأسها . تبلت : تنقطع في كلامها ، ولا تطيله .

(٧) النثا : ما تتحدث به عن الرجل من حسن او سيء . يقال : نثا الحديثَ : حدّث به وأشاعه . حليلها : زوجها .

(٨) آب : رجع . لم يسل أين ظلت : أي لا تبرح بيتها .

فدقّتْ وَجلّتْ واسبَكَرّتْ وأُكمِلَتْ

فلو جُنَّ إنسانٌ من الحُسْنِ جُنّتِ[1]

فالشاعر لم يتحدث عن جمال الجسم إلا في البيت الأخير ، إذ أشار فيه إلى أنها حسنة الخَلْق جميلة ، وجمالها يفوق الوصف ، لدرجة أن تمام الجمال لو كان يسبب لصاحبه الجنون ، لكانت قد جنت من حسنها الكامل. ولكنه في الأبيات السابقة يعجب بأخلاقها وصفاتها وشمائلها ، فهي كاملة في كل شيء، ليس من أفعالها ما تستحق عليه أدنى لوم ، وليس في طبيعتها او اخلاقها ما يغضب الآخرين ، بل كل أفعالها ، وأقوالها ، وأخلاقها محمودة فأحبها جميع الناس . وهي تمتاز بالحياء الكامل فهي في غاية الحشمة والادب ، إذا مشت لا تكون متبهرجة ولا متبرجة ، فتحافظ على قناعها ، ولا تتلفت في أي اتجاه ، وهي كريمة تؤثر جيرانها على نفسها ، وتحافظ في إهدائها على كرامة من تقدم له الهدية ، فتقدم أعزّ ما لديها لجارتها ، في وقت لا يراها فيه أحد ؛ وبيتها كله طهارة وشرف ، فهي تتصف بالعفة والنقاء ، وفي منتهى البعد عن أدنى شبهة او ظن ، ويبدو حياؤها واضحاً في مشيها ، فهي إذا مشت ، لا تنظر إلا أمام قدمها ، كأنها من شدة حيائها تبحث عن شيء ضاع منها ، ولا تتحدث عن زوجها إلا بكل ما يصوره عظيماً كريماً . وسيرتها حلوة ، فالحديث عنها يرفع هامة زوجها ، ويزيده شرفاً وغبطة ؛ وهي في معاملتها لزوجها في منتهى الكمال، لا تبرح بيتها إلا بعلمه ، وتتحرى ما يرضيه ويسره ، وتعامله في غيبته كما لو كان موجوداً ، وعند عودته اليها يعود وقلبه متلهف لرؤيتها ، لأنه يحس السعادة الحقيقية في وجوده معها . وقد قال الأصمعي : هذه الأبيات أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن .

---

(١) اسبكرت : طالت وامتدت . ولعله يقصد بهذا البيت ان اعضاء جسمها كلها في منتهى الجمال ، فالاعضاء التي تجمل فيها الدقة ، دقيقة ، والتي يحسن فيها الامتلاء مملوءة . وطول قامتها في أحسن ما يكون طول القامة ، ثم قال : واكملت ، أي كمل جسمها حسناً وجمالا . وعقب على ذلك بأنه لو كان الجمال الكامل سبباً في جنون صاحبه . لجنت هي من جمالها التام في كل شيء ؛ خَلقاً وخُلقاً .

ولجانب هذه الموضوعات التي قال فيها الشعراء ، توجد هناك كثير من الاشعار في نواح عامة ، بدراستها يتضح كثير من جوانب الحياة والظروف والتقاليد التي كان يحياها العرب في الجاهلية .

من ذلك مثلا ما يقوله عمرو بن الاهتم في وصف حال رجل ضل الطريق ليلا ، فقال [1] :

ومُستَنْبح بعد الهدوء دَعَوتُه	وقد حان من نجم الشتاء خُفُوق [2]
يُعالجُ عِرنيننا من الليل باردا	تَلُفُّ رياحٌ ثوبَه وبُرُوقُ [3]
تَألّقُ في عَين من المُزنْ وادقٍ	له هَيْدَبٌ دَانى السحاب دَفُوق [4]
أضَفْتُ فلم أفْحِش عليه ولم أقُل	لأحرمَه : إن المكان مَضيق [5]
فقلتُ له : أهْلاً وسهلاً ومرحبا	فهذا صَبُوحٌ راهنٌ وصَديقُ [6]
وقمتُ إلى البرك الهواجد فاتَّقَتْ	مَقَاحيدُ كُومٌ كالمجادل رُوقُ [7]

(١) المفضليات ، ص ٢٦ ، ب ٧ - ٢١ .

(٢) المستنبح : الرجل الذي يضل الطريق ليلاً فينبح لتجيبه الكلاب إن كانت قريباً منه، فاذا أجابته تبع أصواتها ، فأتى الحي ، فنزل عندهم ضيفاً . النجم (هنا) : الثريا ، وذلك لأنها تخفق للغروب في جوف الليل .

(٣) العرنين : الأنف ، والمراد به هنا أول الليل . وبروق : أي كان البرق يلمع بكثرة .

(٤) تألق : تلمع ، أي البروق . عين: مطر أيام لا يقلع . المزن: السحاب الأبيض .الوادق: الداني من الأرض . هيدب : شيء يتدلى من السحاب، مثل الهدب .

(٥) أضفت : أنزلته ضيفاً مكرماً . لم أفحش : لم أقابله بسوء .

(٦) الصبوح : الشرب في الصباح . الراهن : الدائم الثابت .

(٧) البرك : إبل الحي كلهم . الهواجد : النيام . والهاجد من الأضداد ، يقال للنائم ،ويقال المتيقظ بالليل المتهجد بالقراءة والصلاة . فاتقت : تحاشت وباعدت الشر عنها ، أي جعلت بيني وبينها الأدماء التي في البيت التالي . مقاحيد : إبل عظام الأسنمة . الكوم : جمع كوماء وهي الناقة الضخمة . المجادل : جمع مِجْدل وهو القصر . روق : خيار .

بأدْماءَ مِرْباع النِّتاج كأنّها إذا عَرَضَتْ دُونَ العشار فنيق[1]
بضَربةِ ساقٍ أو بِنَجْلاءَ ثَرّةٍ لها مِنْ أمام المَنْكِبَيْن فتيق[2]
وقامَ إليها الجازران فأوْفَدَا يُطيران عنها الجلدَ وَهْنَ تفُوق[3]
فَجُرَّ إلينا ضَرْعُها وسَنَامُها وأزهرُ يحبو للقيام عَتيق[4]
بَقيرٌ جَلا بالسيفِ عنه غِشاءَهُ أخٌ بإخاءِ الصالحين رَفيقُ[5]
فباتَ لنا مِنها وللضيف مَوْهِناً شِواءٌ سَمينٌ زاهِقٌ وغَبُوق[6]
وباتَ له دونَ الصَّبَا وهْيَ قَرَّةٌ لِحافٌ ومَصقُول الكساءِ رَقيق[7]
وكلُّ كريمٍ يتّقِي الذمَّ بالقِرَى وللخير بين الصالحين طريق
لَعَمْرُكَ ما ضاقت بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضيقُ

فهذه الأبيات تبين لنا كيف كان السائر في الصحراء ليلا يتصرف إذا ضل الطريق ، وساءت به الظروف ، لقد كان ينبح كما ينبح الكلاب لتجيبه الكلاب بالنباح ، فيعرف مكانها ، وهي لا تكون إلا مع أصحابها ، فيذهب إليهم ، وينزل عليهم ضيفاً ، والشاعر هنا يروي كيف كان العربي يعامل هذا النزيل في مثل هذه الحال ، لقد كان صاحب البيت يقابله بالبشاشة والترحاب وينزله

---

(١) الأدماء : البيضاء . مرباع النتاج : يكون نتاجها في أول الربيع . وذلك أقوى لولدها. العشار : جمع عشراء ، وهي الناقة التي مضى عليها من لقحها عشرة أشهر . فنيق : فحل ، شبه هذه الأدماء به لعظمها ، والمعنى أن هذه الابل اتقت العقر عنها بهذه الناقة أي كانت أكرمهن وأفضلهن فاخترنها لقرى الضيف فكأنها كانت الواقية للأخريات .

(٢) بضربة ساق : قطع عراقيبها بسيفه . نجلاء : طعنة واسعة . ثرة : واسعة مخرج الدم . العتيق : يريدانه طعنها في لبتها ، وهي أمام منكبيها .

(٣) أوفدا : ارتفعا ، أي علوا عليها لعظمها . تفوق : تجود بنفسها .

(٤) الأزهر : الأبيض ، يريد ولدها . عتيق : كريم . يريد أنه نحر أحسن الابل عنده وهي العشراء .

(٥) بقير : مشقوق عنه غشاؤه ، صفة لأزهر .

(٦) موهنا : بعد وقت من الليل قريب من نصفه . الزاهق : الذي ليس بعد سمنه سمن . غبوق : شراب المساء .

(٧) دون الصبا : دون ريح الصبا . قرة : باردة .

منزلا جميلا ، كأنما يعيش في بيته ، ووسط أهله وعشيرته ، وفي الحال يذهب الى أكرم إبله فيذبحه ، ويهيىء لضيفه طعاماً شهياً ، ويقضي معه السهرة في سمر حلو جميل ، ويشعره أنه أخ وحبيب ، فإذا أراد النوم ، أعدّ له فراشاً وثيراً ، دافئاً . وجهز له ما يقدم له في الصباح وفي المساء من طعام وشراب . ثم يعقب الشاعر على ذلك بأن الخير دائماً موجود ، ويستطيع كل من يريد الخير أن يفعله ، والعاقل الكريم ، هو الذي يتحاشى ذم الناس ، بفعل الخير ، وذلك لن يكلفه كثيراً ، فطريق الخير سهلة ويسيرة ، وليس هناك ما يؤلم الإنسان أكثر من سوء الأخلاق .

وفي وصف لمجلس من مجالس اللهو والمرح بين صحبة يجمعهم الحب والإخاء، يقول ثعلبة بن صُعَيْر [١] المازني :

أَسُمَيَّ ما يُدْرِيكِ أن رُبَّ فِتْيَةٍ بيضِ الوجوه ذوي نَدىً ومآثر [٢]
حَسَنِي الفكاهَةِ لا تُذَمُّ لِحامُهُمْ
سَبِطِي الأكُفِّ، وفي الحروب مَسَاعِرِ [٣]
باكرتُهُمْ بسباءِ جَوْنٍ ذارعٍ قبلَ الصباح وقبلَ لَغْوِ الطائرِ [٤]
فَقَصَرْتُ يومَهُمُ بِرَنَّةِ شارفٍ وسَماعِ مُدْجِنَةٍ وجَدْوَى جازرِ [٥]

---

(١) المفضليات ص ١٣٠ ب ١٥ – ١٩

(٢) ندى : كرم . مآثر : مفاخر وأمجاد .

(٣) لحامهم : جمع لحم ، أي لا تذم لسخائهم ، وان قراهم معد حاضر . السبط: المرسل ، والمراد أن أيديهم سخية ، أي هم كرام . مساعر : جمع مِسعَر وهو الذي يسعر الحرب أي يوقدها .

(٤) سباء : اشتراء الخمر . جون : أسود . أراد به زق الخمر . ذارع : كثير . لغو الطائر : صياحه .

(٥) شارف : ناقة مسنة . ورنتها : صوتها عند النحر . سماع مدجنة : سماع قينة تغني في يوم الدجن وهو اليوم الكثير الغيم ، والسماع واللذة يوم الدجن أطيب منه في غيره . جدوى : عطية ، أراد ما يتحفهم به الجازر من أطايب الطعام .

حتى تَـوَلىّ يومُهُـــم وتَرَوَّحوا لا يَنْشَنُون إلى مَقالِ الزاجِرِ [1]

فهو في قراهم وإكرامهم ، قد جمع كل نواحي المتعة والسرور ؛ من شراب وطعام وغناء .

ولئن رأينا في أبيات الشنفري السابقة صورة للمرأة المثالية ، في خَلْقها وخُلُقها ، وطباعها ، وعاداتها ، ومعاملتها لزوجها ، فإن الحياة تجمع الخير والشر ، وفيها الوفاق والشقـــاق ، كما أن فيها الوئام والخصام ، وفي أبيات لعلباء بن أرقم بن عوف نرى صورة لحيـــاة زوجية لم تكن سعيدة دائماً ، إذ يقول [2] :

ألا تلكما عِرْسي تَصُدُّ بوجهها وتَزْعُمُ في جاراتها أنّ من ظَلَمْ

أبُونا ، ولم أظلِم بشيءٍ عَمِلتُه سِوَى ماتَرَيْنَ في القذالِ من القَدَمْ [3]

فيومـــاً توافينا بوجـه مُقَسَّم كأنْ ظبيةٍ تعطو إلى ناضِرِ السَّلَمْ [4]

ويومـــاً تريدُ مالَنا مع مالِهـــا فإن لم نُنِلْها لم تُنِمْنَا ولم تَنَمْ

نَبيتُ كأنا في خُصُوم عَرامةٍ وتَسمعُ جاراتِيَ التَّألِّي والقَسَمْ [5]

فقلتُ لها إنْ لا تَنَاهَيْ فإنـــني أخو النُّكْرِ حتى تَقْرَعي السِّنَّ من ندَمْ [6]

---

(١) روحوا : عادوا إلى منازلهم . لا ينثنون : لا يسمعون ولا يتأثرون . الزاجر : يقصد الحاسد الحقود .

(٢) الاصمعيات ، ص ١٥٧ ب : ١- ٧ .

(٣) القذال : جماع مؤخر الرأس من الانسان والفرس فوق فأس القفا .

(٤) مقسم : من القسام ، وهو الجمال والحسن ، ووجه مقسم : جميل كله ، كأن كل موضع منه أخذ قسماً من الجمال . تعطو : تتناول يتعدى بنفسه وبالحرف . السلم : ضرب من شجر البادية يعظم وله شوك ، واحدته سلمة .

(٥) خصوم : جمع خصم أي في جماعة يختصمون . العرامة : الشراسة والأذى . التألي : الحَلِف والقَسَم .

(٦) تناهى : تَكُفى وتقلعى . النكر : الدهاء والفطنة .

لَتَجْتَنِبْكِ العِيسُ خُنْساً عُكُومُها
وذُو مِرَّةٍ في العُسْرِ واليُسْرِ والعَدَمْ [1]

فهو هنا يشكو من زوجته ويصف حياتهما بأنها مضطربة لا يسودها الوفاق والانسجام ، ويذكر أن زوجته كثيرة الادعاء والشكوى ، وتتحدث إلى جاراتها بأن حظها سيىء ، وأن زواجهما كان ظلماً ، وهي متقلبة في معاملتها له ، فيوماً تقبل عليه بوجه جميل باسم ، وجبين مشرق ناضر ،ويوماً تأتي عابسة الوجه ، مقطبة الجبين ، مشتطة في طلباتها المالية ، لحاجاتها الخاصة وحدها ، فإن لم يعطها ما تطلب ، انقلبت إلى ثورة ، وهياج ، وصراخ ، وعراك ،وايمان ، فتطير النوم عنه وعنها ، ويملأ ضجيجها وقسمُها وأصواتها النابية بيوت الجارات ، فحذّرها ، في صرامة وجدّ ، بأنها إن لم تنته عما هي فيه ، فسوف تندم ندامة لا تفارقها وتُحرَم من كل خير وسعادة طوال حياتها .

وكانت لهم مثل عليا في حياتهم ، يتمنى كل منهم أن يترسمها ويحققها ، وتراها مبثوثة في ثنايا أغراضهم الشعرية ، ولكن كان الواحد منهم يجمعها في وصاياه التي ينصح أولاده باتباعها، ليكون كل منهم نموذجاً للمثل الأعلى للعرب، ومن هذه الوصايا قول عمرو بن الأهتم [2] :

لقد أوصيتُ رِبْعِيَّ بنَ عمرو : إذا حزبَتْ عَشيرتَكَ الأمورُ [3]
بأنْ لا تُفسِدَنْ ما قد سَعَيْنَا وحِفظُ السُّورَةِ العُلْيا كبيرُ [4]

---

(١) العيس : الابل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة . العكوم . الاحمال والأعدال التي فيها الأوعية من صنوف الأطعمة والمتاع . والخنس. جمع أخنس وخنساء.والخَنَس في الأنوف انخناؤها ، وصف به العكوم لامتلائها وانحنائها . مِرّة،قوة.يقصد،ذو عقل وقوة وأصالة ، يعنى بذلك نفسه .

(٢) المفضليات ، ص ٤٠٩ ب : ٥ - ١٧ .

(٣) ربعي : ابنه . حزبت : فاجأت ودهمت وثقلت .

(٤) السورة : المجد والسيادة . يقول له : لا تهدم ما بناه آباؤك من الأمجاد، بل صنها وتمسك بها وزد عليها . فالمحافظة على الامجاد وتراث الأسلاف مهمة كبرى .

وإن المَجْدَ أوَّلُـه وُعُورٌ ومَصْدَرُ غِبِّه كَرَمٌ وَخِيرُ[1]
وإنك لن تنالَ المجـدَ حتى تَجودَ بما يَضِنُّ به الضَّمِيرُ[2]
بنفسك أو بمالِـك في أمـور يَهابُ رُكوبَها الوَرِعُ الدَّثُورُ[3]
وجاري لا تُهِينَنْه ، وضَيْفي إذا أمسى وراءَ البيت كُورُ[4]
يَؤوبُ إليكَ أشعثَ جَرَّفَتْه عَوانٌ لا يُنَهْنِهُهَا الفُتُورُ[5]
أصِبْه بالكرامـةِ ، واحْتَفِظْه عليكَ ، فإن مَنْطِقَه يَسيرُ[6]
وإن من الصديق عليـكَ ضِغْناً بَدا لي ، إنني رَجُلٌ بَصيرُ[7]
بأدْواءِ الرجـالِ إذا التَقَيْنَا وما تُخْفي من الحَسَكِ الصدورُ[8]
فإن رَفَعُوا الأعِنَّةَ فارْفَعَنْها إلى العُلْيا ، وأنت بهـا جَديرُ[9]
وإن جَهَدُوا عليكَ فلا تَهَبْهُمْ وجاهِدْهُمْ إذا حَمِيَ القَتِيرُ[10]

---

(١) وعور : مشقات وصعوبات . غبه : عاقبته . خير : خير عظيم . يقصد أن المكرمات لا تنال إلا بصعوبة ومشقة ، وبناء الأمجاد ليس سهلاً ، ولكن عاقبتها شرف وسؤدد عظيم .

(٢) تجود : تسخو وتسمح . يضن : يبخل ويشح . الضمير : يقصد هنا النفس البشرية .

(٣) الورع : الخائف المتحرج . الدثور : الخامل النؤوم . يهاب : يخشى ويخاف .

(٤) الكور : كور الرحل ، وهو خشبه وأداته ، يقول : احفظ جارك ، وضيفك ، فلا تهنهما ، وأكرمهما ، حتى في أيام الشدة التي لا يهتم فيها أحد بحفظ الجار ، ولا قرى الضيف ، فيرمي بأكوارهم وراء البيت . وكان الضيف في العـادة إذا نزل بقوم نزل بأدبار البيوت حتى يهيأ له مكانه .

(٥) يؤوب : يرجع ويقصد هنا يأتي . أشعث : في حال سيئة ، وأصله اليابس من جفوف الشعر لفقد الدهن . جرفته : أذهبت ماله . عوان : ليست بأول ، يقصد مصيبة نزلت به مرة بعد مرة . لا ينهنهها : لا يردها . الفتور : السكون .

(٦) احتفظه عليك : خص نفسك به . يسير : يشيع وينتشر . يقول : ان مدحك أو ذمك سار قوله في الناس وحفظه الرواة .

(٧) ضغناً : حقدا وعداوة . بصير : خبير .

(٨) أدواء : جمع داء وهو المرض . الحسك : الشوك ، ويقصد هنا الحقد والعداوة .

(٩) رفعوا الأعنة: أعلوها ، وهذا مثل يقصد: إن سابقوك إلى المجد فاسبق إلى المنزلة العليا، وانت لها كفء ، وبها أحق .

(١٠) القتير : رؤوس مسامير الدروع . جهدوا : اشتدوا. لا تهبهم:لا تتركهم .

فإن قَصَدوا لِمُرِّ الحقّ فاقْصِدْ وإن جاروا فَجُرْ حتى يَصيروا[١]

وأما خبراتهم بالحياة، وثمرات تجاربهم، فقد أودعوها في حِكمهم التي تكون في العادة ذات ألفاظ قصيرة، ولكن معانيها كثيرة، وهي منتثرة في ثنايا أشعارهم، يأتون بكل منها حينما تحين الفرصة المناسبة لها في سياق الكلام، وهي كلها تدل على أنها مستقاة من بيئتهم، وحياتهم، ونظراتهم، وخبراتهم، كما أنها تدل من ناحية أخرى على صدق إحساسهم ودقة ملاحظتهم ..

ولئن كانت هذه هي المثل العليا للعرب على وجه العموم، فلقد كان هناك فئة من الفقراء اتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة في حياتهم، فسلكوا سلوكاً له سمات معينة، هؤلاء هم الصعاليك، وقد صوروا فلسفتهم في الحياة في أشعارهم، من ذلك ما يقوله عروة بن الورد[٢] :

لَحَى اللهُ صُعلوكاً إذا جَنَّ ليلُه مضَى في المُشاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ[٣]
يَعُدُّ الغِنَى من دَهرِهِ كُلَّ ليلةٍ أصابَ قِراها من صديقٍ مُيَسَّرِ[٤]
قَليلَ التماسِ المال إلاّ لنَفْسِهِ إذا هو أضْحَى كالعَريشِ المُجَوَّرِ[٥]
ينام عِشاءً ثم يُصبح قاعداً يَحُتُّ الحصَى عن جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ[٦]

---

(١) قصدوا : توجهوا وأرادوا . لمر الحق : يقصد أن تثبيت الحق والمحافظة عليه من الأمور الشاقة كالأشياء المرة التي لا تقبلها النفس بسهولة . يصيروا : يرجعوا ويعودوا الى الحق .

(٢) الأصمعيات : ص ٤٥ ب : ١٣ - ٢١ .

(٣) لحاه الله : قبّحه ولعنه . الصعلوك : الفقير . المشاش : رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها . مجزر : موضع الجزر ، وهو بفتح الزاي قياساً ، وكسرها سماعاً . جنّ ليله : أظلم .

(٤) ميسر (بكسر السين المشددة) : الذي سهلت ولادة إبله وغنمه ، ولم يطلب منها شيئاً. يقول : ان هذا الشخص إذا ملأ بطنه عندما يجود عليه شخص حاله ميسرة ، عد نفسه غنياً ، ولم يبال من وراءه من عياله وقرابته .

(٥) العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط . يقول إذا شبع فملأ بطنه ألقى نفسه كأنه عريش قد انهار .

(٦) ينام عشاء : ينام مبكراً من أول الليل . يحت : ينفض ويزيل . يقصد أنه كسول خامل ليس بصاحب إدلاج ولا غزو .

يُعين نساءَ الحيِّ ما يستعِنَّه فيُضحي طليحاً كالبعير المحسَّر (١)
ولله صعلوكٌ صفيحةُ وجهِهِ كضوءِ شهاب القابِس المتنوِّر (٢)
مُطِلّاً على أعدائه يزجُرونه بساحتِهم زجْرَ المنيح المشهَّر (٣)
وإن بَعُدوا لا يأمنُون اقترابَه تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّر (٤)
فذلك إن يلقَ المنيّةَ يلقَها حميداً، وإن يستغْنِ يوماً فأجدِر (٥)

فهو يدعو بالقبح واللعنة على هذا الفقير الذي ليس له حظ من المال ، فيرضى بالاستكانة والمهانة ، ويألف الكسل والخمول ، ويكتفي في طعامه بأن يبحث في المهملات عن عظام اللحوم الملقاة المهملة فيأكل ما عليها من بقايا ، أو يمتص ما بداخلها من نخاع ، وإذا جاد عليه صديق بأكلة عدّ نفسه غنياً ، ولا يهتم إلا بنفسه ، فلا يبالى بأولاده ومَنْ عليه أن يعولهم ، ويمضي ليله أو نهاره في النوم على التراب والحصى ، أو في خدمة ربات البيوت إذا تفضلن عليه بتكليفه تنظيف البيوت ، أو قضاء ما يحتجن إليه . لكن لله در هذا

---

(١) طليح : معيى . محسر : مجهد متعب . يريد أنه يقضي وقته في خدمة المنازل ، كلما طلبت منه ربات البيوت، حتى يبلغ منه التعب درجة كبيرة ، فيصبح في منتهى الاعياء. كالبعير الذي أجهده طول العمل .

(٢) صفيحة وجهه : بشرة جلده الشهاب : شعلة من نار ساطعة . القابس : الذي يقبس النار أي يأخذها . المتنور : المضيء .

(٣) مطلا : مشرفا . مطلا على أعدائه : يغزوهم دائماً ، كأنما ينظر اليهم من مكان عال ، فاذا وجد الفرصة سانحة انقض عليهم بالهجوم . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : يقصد به هنا ؛ قدح مستعار سريع الخروج والفوز ، يستعار فيضرب ثم يرد إلى صاحبه . وقيل . إن المنيح قدحٌ تكثر به القداح ، ولا حظّ له . وهو اكثر القداح جولاناً لأنه إذا خرج منها رد فيها ، وإذا خرج منها غيره مما له حظ عزل عنها . وقيل ان هناك المنيح الذي تكثر به القداح ، والمنيح الذي يزجر . المشهر . المشهور .

(٤) يتشوف : يوجه عينه لينظر . يقول : إن بُعد أعداؤه عنه لم يلهه بعدُهم عن غروهم ، وهم لا يأمنون ذلك منه ، فهم يتوقعونه في كل ساعة كما ينتظر أهل الغائب غائبهم متى يقدم ، فأعينهم إليه يتشوفونه .

(٥) حميدا : أهل للثناء والمدح .

الشهم الأبيّ ، فقلة المال في يده لا تؤثر على شخصيته وكرامته ، بل إنه عزيز النفس مهاب ، بعيد عن الدنايا ، فوجهه وضاء ، وجبينه مشرق ، لما له في قلوب الناس من المهابة، ويحسب الأعداء له ألف حساب وحساب ، مهما كانوا منه ، قريبين أو بعيدين ، لأنه بطل شجاع ، يملأ النفوس رهبة وفزعاً ، فمثل هذا أهل للثناء والإعجاب ، وهو في حياته ومماته جدير بالاحترام وحسن التقدير .

ومثل هذا الكلام يرينا كيف كان حال الفقراء – وما أكثرهم – في هذه الأوقات ، فنستطيع منه أن نتبين بوضوح ، ما كانوا فيه من بؤس ، وما كانوا يلاقون من شظف العيش ، وما كانوا يعيشون عليه من أدنى درجات الكفاف ، وما كان أسعدهم حينما يجدون لقمة من كريم ، أو يكلفون بعمل ولو حقير . ومن ناحية أخرى ترينا هذه الأبيات كيف حاولت بعض النفوس منهم أن يشقوا طريقهم في تلك الظروف بوسائل القوة والإرهاب .

***

مما سبق يتضح أن الشعر الجاهلي يتضمن الكثير عن العرب في العصر الجاهلي ، فاستحق عن جدارة أن يوصف بأنه ديوان العرب ، فقد سجل حياتهم وبيئتهم وظروفهم ، وحوى صوراً واضحة عن العرب في ذلك العصر، من النواحي السياسية ، والاجتماعية، والاقتصادية ، مما يجعلنا نؤمن بأنه يمكن الاعتماد عليه في تصوير الحياة العربية في العصر الجاهلي تصويراً دقيقاً ، وإن لم يكن في جميع النواحي ، ففي معظمها على الأقل .

كما نستطيع أن نتبين من هذه النماذج أن الشعر الجاهلي قد غطى جميع جوانب الشعر الغنائي ، فقد قال الشعراء الجاهليون في جميع أنواع العواطف الإنسانية المختلفة ، واستطاعوا أن يصوروا النفس البشرية وانفعالاتها في جميع الحالات ، مما يدل على قوة الإحساس ، ورقة الشعور ، وما حوته هذه النماذج – وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره – من الصور الشعرية ، يدل على دقة الملاحظة ، وقوة الشاعرية لدى الشعراء .

وقد اتسم الشعر الجاهلي بخصائص معنوية نلخصها فيما يلي : —

(٦) المادية والحسية : إذا رجعنا إلى الموضوعات التي عالجها الشعر الجاهلي نجد أنها معالجة من الناحية المادية ، فالحديث عن كل منها يدور حول النواحي الحسية ، حتى ما كان منها معنوياً نجده قد أصبح محساً كأنما تراه بعينك أو تحسه بلمسك ، فالفخر مثلا ، يدور الحديث فيه عن كثرة العَدَد ، وقوة السلاح ، وقتل الاعداء ، والأسر ، والسبي ، وأخذ الغنائم ، والاستيلاء على المنازل ، وعن شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وإتلاف الاموال ، والإسراف والتبذير ، وإطعام الطعام ، وكذلك كان المدح ، وبضد ذلك كان الهجاء والتهديد . كما تظهر الناحية المادية بوضوح في الغزل ، إذ أن الظاهرة الغالبة فيه التغني بالأوصاف الجسدية للحبيبة ، وهكذا لو تتبعنا جميع الأغراض والموضوعات سوف نجد الناحية الحسية واضحة فيها .

ولعل ذلك راجع إلى الظروف التي كانت تحيط بهم في تلك البيئة ، فقد كانت قاحلة ، جرداء ، فانتشر فيها الفقر والبؤس ، وقل الخير ، فلم تكن هناك وسائل مهيئة لتفتح الأذهان والقلوب على النواحي المعنوية. والإنسان في البيئة الفقيرة إنما يتجه أولاً إلى النواحي المادية التي تعود عليه بالنفع المادي ، فهو لا يفكر إلا في الفائدة الحسية التي تقيم أوده ، وتحفظ حياته أولاً ، أما ما وراء ذلك من المعنويات الأعلى شأناً من ذلك ، فلا تجيء إلا بعد الاطمئنان على ما يمكنه أن يعيش عليه . ثم إن حظ الجميع من الناحية الثقافية كان قليلا ، وهذه الناحية إذا ما تهيأت للإنسان بقدر كاف ، وسعت من أفقه ، ومجال إدراكه وتفكيره ، فحملته إلى آفاق أخرى ، أعلى من الناحية المادية. والعرب في ذلك الوقت كانت سبل الحياة أمامهم شاقة عسيرة ، وكانت علاقاتهم الاجتماعية في أكثر أحوالها بسيطة ، وما كانوا يعرفون من ثقافات غيرهم كثيرا، ولا يعرفون من تاريخ العصور أكثر من عادات أسلافهم الأقربين، فلم تهيئهم ظروفهم للثقافة الواسعة التي تفتح القلوب على آفاق الروحية والمعنويات .

البساطة في التفكير : والمعاني التي يتضمنها الشعر الجاهلي بسيطة ، ليس فيها تعقيد ، ولا غموض ، فهي معالجة بطريقة ليس فيها عمق ، ولا إغراق في التفكير ، وقد يكون ذلك أيضاً راجعاً إلى طبيعة الحياة التي كانوا يحيونها ، فقد كانت حياة فطرية بسيطة ، خالية من التعقيد ، ذلك لأنه لم يكن فيها شيء من شوائب المدنيّة التي من شأنها أن تعقد حياة أهلها ، وتجعلها متشابكة متداخلة ، فيها صعوبات ومشاكل تحتاج في حلها أو التغلب عليها إلى التعمق في التفكير ، وإطالة البحث .

والحق أن المعاني التي جاءت في الشعر الجاهلي يستطيع القارىء أو السامع أن يدركها ، وأن يحيط بها لأول وهلة بمجرد أن يعرف قصد الشاعر ، ولا يحتاج في ذلك إلى إعمال العقل ، وكد الذهن ، وما في هذه المعاني من جمال يبدو واضحاً لأن أصحابها كانوا يعيشون على الفطرة ، في بساطة وصراحة ووضوح .

٣ **الصلة بالبيئة** ، والأفكار مستقاة من البيئة الصحراوية ، فمظاهر الصحراء ، والحياة الجاهلية في ربوعها ، مصورة في الشعر الجاهلي أحسن تصوير ، كما سبق شرح ذلك ، وهذا يدل على شدة اتصال العربي بهذه البيئة ، وتأثره بها ، واحساسه التام بكل ما فيها ، ودقة ملاحظته لكل ما حوله . والصور الشعرية كلها مأخوذة من البيئة ، إما من ظواهر الطبيعة الصامتة أو الحية ، وإما من مظاهر الحياة التي تجري أمامهم كل يوم ، وإما من المختزن في مخيلتهم من الصور النابعة من البيئة الصحراوية ، أو الصور التي يؤلفها خيالهم ، وعليها طابع البيئة الصحراوية ، أو أثر من آثارها ، أو من وحيها وإلهامها .

٤ **وحدة المعاني وتنوع الصور** : وفي الشعر الجاهلي تدور الموضوعات حول معان كثيرة متعددة ، وقد تعاور هذه المعاني كل شاعر تقريباً ، كل واحد يقول فيما قال فيه سابقه او معاصره ، وإنا لنجد كلا منهم يكثر كثرة ظاهرة في الحديث عن بعض الموضوعات ، كالقبيلة ، والمرأة ، والخيل ، والإبل ،

وأدوات الحرب ، والغزال ، والظبي ، والبقر ، والحمر الوحشية ، والحمام ، وهذا يدل على اتصال العربي الوثيق بهذه كلها ، كما يدل من ناحية اخرى على شدة تأثره بها اكثر من غيرها .

والشعراء إن جروا في أحاديثهم وصورهم الشعرية على استعمالات تكاد تكون متحدة فيما بينهم إلا أنهم كانوا يحاولون بقدر الإمكان أن يظهروا شخصياتهم الفنية في أشعارهم وصورهم الشعرية ، فلئن كان الحديث في الموضوع مكرراً أو معاداً ، فقد كان الشاعر يحاول جهده أن يبتكر ، كأنما يريد أن يخلق جديداً ، فيحوّر في الصورة ، او يضيف ما لم يسبقه اليه غيره ، فيبدو القديم الذي كاد أن يبلى في أيدي مستعمليه ، كأنه جديد ، يطلع على الوجود لأول مرة ، بفضل قوة الشاعر الفنية ، ودقة ملاحظته ، وكثرة تجاربه ، وخبراته في الحياة . فكل صورة شعرية استعملها عدد من الشعراء ، تجيء على اشكال متعددة مما يجعل كلاً منها يختلف عن غيره . وقد تحدثنا عن ذلك ، مع إيراد أمثلة كثيرة له في شعر الحرب .

٥) **الصدق والدقة** : وفي الشعر الجاهلي يتجلى بوضوح صدق الشعور ، وقوة العاطفة، فما كان الشاعر يقول أبياته او قصيدته إلا لأنه كان يحس أنه مدفوع بقوة داخلية للتعبير والتصوير ، تلك القوة ، هي صدق الشعور ، وحرارة العاطفة النابعة من نفسه وحسه ، فالدافع نفسي وذاتي ، وهو قوي ، لأنه صادق وأصيل ، غير دخيل ولا مفتعل ، يمثل حقيقة ما يشعر به الشاعر من تلقاء نفسه ، بدليل انه السامع ، بمجرد أن يسمعه ، سرعان ما ينفعل به ، ويسري تأثيره في نفسه مسرى الدم في شرايين جسمه ، ويبدو عليه أثره في الحال . ولا زلنا نحن الآن ، حينما نسمعه ، تتحرك عواطفنا بتأثيره ، مع طول العهد به ، وبعد الشقة بيننا وبينه ، واختلاف ظروفنا عن ظروفه التي قيل فيها ، وهذا دليل على صدق شعور قائليه ، ودقة إحساسهم بالنفس الانسانية ، فصوروا مشاعرها في أشكال صادقة بديعة ، تتجاوب معها كل النفوس ، في كل العصور ، وفي جميع البيئات ، ومختلف الظروف .

كما أن التصوير دقيق على العموم، فالشاعر، بصفة عامة، يحاول أن يرسم صورة دقيقة لما يتحدث عنه، وبخاصة الأشياء التي كان أكثر اتصالا بها، فقد أتى في تصويرها على كل جزئياتها، كبيرها وصغيرها، وفي جميع حالاتها، كما نراه واضحاً في صورة الحبيبة، والفرس، والناقة مثلا. كأنما كان يريد أن ينقل صورة طبق الأصل، وكأنه كان ينحت تمثالاً، ولكن في ألفاظ وأنغام.

وقد دفعهم تحري الحقيقة في بعض الأحيان إلى نوع من القصائد الشعرية سميت بالمنصفات؛ وذلك لأن الشاعر كان يحاول أن يحكى الحقيقة، فيتحدث عن أعدائه كما يتحدث عن قومه، فإن ذكر ما أوقعه قومه بالأعداء، ذكر ما حدث لقومه من الأعداء، وكما يصف بأس قومه وقوتهم، وبطولتهم، وصبرهم، وثباتهم، وأسلحتهم، وما قاموا من أعمال البطولة، وصف الأعداء كذلك من هذه النواحي، فاعتبر حينئذ منصفاً، وسميت قصيدته منصفة.

٦) **الحياة والحركة**، وفي الصورة الشعرية نجد الحياة تجري، والحركة تدب فيها، بحيث نرى الصورة كأنما هي أجسام حية، تتحرك، وتجري، وتكر، وتفر، وتحاور، وتداور، وتتلفت، وتتحدث، وتتكلم بأفصح الكلمات، وأبلغ العبارات، ومن أروع الصور الحية قول عنترة:

ما زلتُ أرميهم بثُغرة نحره ولَبَانه حتى تسربلَ بالدَّم
فازور من وقع القنا بلَبَانه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحُم
لو كان يَدْري ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علِم الكلامَ مُكلِّمي

فالصورة يبدو فيها عنترة يدفع حصانه ليتقدم أكثر وأكثر في صفوف الأعداء، في حين أن رماحهم تنهال على الحصان حتى تمزق جسده، واكتسى سربالاً من الدم، فالتفت بوجهه إلى عنترة، وكأنما يستعطفه أن ينظر ما آلت إليه حاله، وشكا إليه ما فيه من ألم، بعبرة انحدرت على جبينه، وزفرات مكتومة من صدره. وهذه القوة الفنية في التصوير إنما يتميز بها

الأدب من بين الفنون الجميلة الأخرى ، فليس هناك من هذه الفنون فن يستطيع أن يبدع صورة حية تتحرك وتتحدث سوى فن الادب .

٧) **الفن القصصي** : وفي الشعر الجاهلي أحياناً تصادفنا قصة شعرية جميلة يصف فيها حادثة تتكون من أفعال ومناظر متعددة ، تسير في تسلسل منطقي ، وترتيب طبيعي ، مما يزيد القطعة الشعرية سحراً وجمالاً ، وتثير الإعجاب والاهتمام ، وإن السرور والإعجاب بهذه القصة ليتضاعفان إذا استطاع الشاعر بقوته الفنية أن يصور المناظر كما تحدث فعلا ، وتظهر فيها المثيرات الحسية والمعنوية بوضوح ، ومن خير الامثلة في ذلك ، أبيات أوس بن حجر التي يصف فيها قصة القوس ،وقد أوردناها بأكملها في نماذج شعر الحرب ، وقد سبق أن ذكرنا نموذجاً لقصة المستنبح ومضيفه الكريم .

٨) **الروح الجماعية** : وتبدو في الشعر الجاهلي الروح الجماعية بوضوح ،فالشاعر في أغلب الاحيان يتحدث عن قبيلته ، في الفخر ، والهجاء ، والوعيد ، والانذار ، الكلام بصيغة الجمع ، مما يؤكد ان الشاعر كان لسان القبيلة ، المعبر عن أحوالها وترجمان احاسيسها ، فيفخر بالاحساب والانساب ، ويعدد مناقب الحاضرين والغابرين من الآباء والاجداد ، ويسرد انتصاراتهم في الحروب ، وأيامهم في الماضي والحاضر ، ويفيض في الحديث عن مكانتهم ، وقدرتهم ، واستعداداتهم ، وعاداتهم وكرمهم ، وإسرافهم ، وتفوقهم في ميادين الفصاحة والبيان والحكمة ، والقول الفصل ، والرأي السديد. ولا عجب في ذلك ، فالنظام القبلي هو الذي كان سائداً في ذلك العصر .

ولئن كانت الروح الجماعية هي السائدة في الشعر الجاهلي ، فلقد كان للنواحي الشخصية نصيب فيه ، فكان هناك فخر شخصي ، وحديث عن المشاعر والاحساسات والعواطف الخاصة بنفسية الشاعر وشخصيته المستقلة ، ولكن هذه الناحية على العموم ، كانت اقل بكثير من الروح القبلية ، ونظرة إلى الاحصاءات لكل منهما في دراستنا لشعر الحرب ، تبين ذلك بوضوح .

ووجود هاتين الناحيتين في الشعر الجاهلي ، مع تفوق الناحية القبلية، يدل

دلالة واضحة على الحرية التي كان يتمتع بها الشاعر الجاهلي في فنه ، كما تدل على انه كان مدفوعاً الى الحديث عن قومه بدافع غرزي وطبع أصيل فيه ، لأنه كان مضطراً او مجبراً . وهذا معناه شدة الاتحاد وقوة التماسك بين أفراد العشيرة الواحدة .

* * *

أما من الناحية الشكلية ففي الشعر الجاهلي مميزات اهمها : —

المحافظة على التقاليد الشعرية : في القصائد الطوال نجد الشعراء الجاهليين قد التزموا ، على وجه العموم ، تقاليد معينة فنراها في جميع القصائد ، ومن اهمها الوقوف على الاطلال ، والبكاء والاستبكاء عند الرسوم والآثار ، وقد سبق ان وضحنا ما يمكن ان يكون تعليلاً لهذه الظاهرة ، وقد يبدأ الشاعر حديثه بخطاب بعض اصدقائه او رفاقه ، والغالب في ذلك أن يكونا اثنين ، كأنهم ما كانوا يسيرون الا في جماعة ، ثلاثه فأكثر ، وكانت مهمة الزملاء تهدئة خاطر الحبيب ، والترويح عن نفسه وتسلية الهم والحزن عنه ، حينما تستبد به الذكريات ، وتنهمر الدموع من عينيه . وبعد ذلك يستعيد الشاعر ساعة الفراق ، فيصف موكب الحبيبة ، حينما بدأ قومها الارتحال ، ويتابع الشاعر تحركاتهم وسيرهم ، وسط الوديان ، وفي منعرجات الطرق ، وهكذا حتى يغيب الموكب عن ناظريه ، وقلبه في تلك الحالة يكاد ينخلع بل انه انخلع فعلا ، ورحل مع حياة النفس ، وروح الفؤاد .

فإذا ما صار أمره الى تلك الحال ، انطلق بيانه مصوراً جمال الحبيبة التي ملكت القلب والروح ، فخلع عليها من آيات الحسن والبهاء ، ما يصورها إلهة الجمال ، وقد قيل في تعليل هذه الظاهرة إنها كانت لتهيئة النفوس للاستماع باهتمام إلى ما يريد الشاعر عرضَه بعدُ . فتُقبل عليه بروح عالية ، وصدور منشرحة .

وبعد الحديث عن الحبيبة ، وجمالها ، وأثر فراقها ، ينتقل الشاعر إلى غرض آخر قد يكون الوصف ، وقد يكون الفخر ، وقد يكون المدح ، وقد

يكون الهجاء ، وقد يجمع بين هذه الاغراض كلها في قصيدة واحده . ومن ثم نجد القصيدة الواحدة تضم أكثر من موضوع ، وتتجلى مهارة الشاعر الفنية في حسن الربط بين هذه الموضوعات ، وجودة الانتقال من موضوع لآخر . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك .

العناية بالالفاظ والعبارات : وفي الشعر الجاهلي نجد أن الشعراء كانوا يهتمون بألفاظهم ، وعباراتهم ، فينتقون ويدققون في اختيار الألفاظ ، ويتحرون أن تكون ألفاظاً شعرية تؤدي الغرض الذي يقصدون إليه بما تحمل من معاني القوة والتأثير ، وتتضح هذه الظاهرة بأجلى معانيها في الحوليات ، وهي القصائد التي يقضي أصحابها في إعدادها وقتاً طويلا قد يقرب من عام ، ولذلك سميت كل منها بأنها حولية ، وأشهر أصحابها زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني .

والذي يدل على ميل الجاهليين إلى انتقاء الألفاظ وجودة رصفها ، ورود ألقاب لكثير من الشعراء تدل على ذلك ، مثل المهلهل، الذي أطلق عليه ذلك – كما يقولون – لأنه هلهل ألفاظ الشعر وأرقها، كما لقبوا المرقش بذلك لتحسينه شعره وتنميقه ، وهكذا قالوا في طفيل الغنوي ، وعلقمة الفحل ، والمثقب ، والمتنخل ، والنابغة ، وان كانت بعض الروايات تعلل ألقابهم هذه بأنها لكلمات وردت في أشعارهم بهذه الألفاظ .

وفي تأليف الأبيات، وتكوين العبارات، نجدهم كانوا – بوجه عام يتحرون الدقة في التعبير ، فلا يأتون بكلمات زائدة ، أو لا لزوم لها . فكانوا يأتون بالألفاظ والعبارات على قدر المعنى المقصود ، فلا ينقصون ولا يزيدون ، فلم يأت في تعبيرهم على العموم – حشو ، ولا زخارف مصطنعة ، فالأسلوب في الشعر الجاهلي قوي رصين ، كل ما فيه لازم وضروري ، لتكميل الصورة ، فليس فيه نقص يخلّه ، ولا زيادة تشوهه ، أو تقلل من حسن العرض وجمال التصوير .

وقد نجد فيه الآن غرابة في بعض الألفاظ ، وليس السبب في ذلك أن الشعراء كانوا يختارون الألفاظ الغريبة ، أو غير المستعملة ، بل بالعكس كان كل منهم يحاول أن يختار الالفاظ الأدبية المعروفة لدى الجميع ، حتى تجري على جميع الألسنة ، ويكتسب شهرة بقدر ما تنتشر أشعاره ، وانما ذلك لأن هذه الالفاظ بالنسبة لنا غريبة لعدم استعمالنا لها ولطول العهد بيننا وبين الوقت الذي كانت شائعة ومستعملة فيه ، ولاختلاف بيئتنا عن بيئتهم التي كانت فيها هذه الالفاظ شائعة الاستعمال ، ومفهومة لدى الجميع وكان التعبير بها يعتبر بسيطاً سهلاً .

وتدل الاشعار الجاهلية على غنى الشعراء اللغوي ، فيبدو من الشعر الجاهلي بوضوح أن كل شاعر كان لديه ذخيرة لا تنفد من الالفاظ والعبارات اللغوية والشعرية المختارة ، وكان في إمكان الواحد منهم أن يأتي بمئات من الألفاظ تتفق كلها في الحرف الأخير منها ، وفي النغم الإيقاعي ، والجرس الموسيقي ، ولعل ذلك هو الذي دفعهم إلى التزام وحدة القافية في جميع القصيدة من أولها إلى آخرها مهما بلغت من الطول .

ولا شك أن مما يدل على مهارة الشاعر العربي اللغوية ، واحتفاله بالألفاظ والعبارات في شعره ، التزامه وحدة الوزن الشعري في جميع أرجاء القصيدة الواحدة ، فهذا يضطره إلى اختيار الألفاظ والتراكيب التي ينتج عنها انسجام تام في الترنيم ، وتوافق ونظام دقيق في الإيقاع ؛ وهذا من ناحية أخرى يدل على ما يتمتع به الشاعر من ثروة لغوية واسعة ، تمكنه من اختيار ما يحلو له ، ووضعه في مكان يظهر حسنه وجماله .

(٢) **المحسنات البلاغية** : والشعر الجاهلي يدل على أن البلاغة كانت فطرية لدى الشعراء الجاهليين ، فكانت الأشعار تنثال على ألسنتهم انثيالا ، وتتوارد على خواطرهم الألفاظ والتراكيب الموسيقية من تلقاء نفسها ، فلا نكاد نجد في

ألفاظهم أو عباراتهم ما هو متكلف أو مصطنع ، إنما يبدو عليها كلها أنها تأتي طبيعية ، وعلى السجية . وقد ورد في تضاعيف أشعارهم بعض الظواهر اللفظية التي اعتبرها الدارسون الفنيون فيما بعد محسنات بلاغية ، من أمثال التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والطباق ، والجناس . ولكن من الواضح أنها جاءت على ألسنتهم في غير ما تكلف أو جهد فني كأنما هي طبيعية ، وعفو الخاطر .

النثر الجاهلي

تؤيد الطبيعة والعقل أن الجاهليين كان لهم نثر أدبي ، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلا أو معدوماً ، وما دام لهم شعر ، فلا بد أنه كان لهم نثر، يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقف أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها . والواقع أنهم كان لهم نثر ، وأنهم حتماً كانوا يجيدون النثر الأدبي ، بدليل نزول القرآن ، وفهمهم له ، ومجادلتم للنبي ﷺ فيما كان ينزل عليه ، وما يتلوه عليهم ، وبدليل تحدي القرآن لهم أن يأتوا بمثله ، أو بعضه ، والقرآن الكريم نثر ، والتحدي لا يكون له معنى إلا إذا كان في الناحية التي يزعم المتحدَّى أن له فيها نبوغاً ، ويدعي لنفسه عليها قوة واقتداراً . ومن ثم لا بد أن الله قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على النثر .

ونثر الجاهليين لا شك أنه كان كثيراً ، يفوق ما كان لهم من شعر ، وقد سبق أن وضحنا ذلك . لكن سنة الكون دائماً تجعل الشعر أوفر حظاً من العناية والاهتمام ، فيُحفَظ ، ويتناقل ، ويروى على مر الأجيال ، أكثر من النثر . ومن ثم نجد المحفوظ من النثر في كل العصور لجميع الأمم أقل بكثير من الشعر. ولهذا نتوقع أن يكون ما حُفظ لنا من نثر الجاهليين أقل بكثير مما حفظ لنا من شعرهم .

وإذا كان في الشعر قافية موحدة ، ومقاطع موسيقية منتظمة تجعله أسهل علوقاً بالذهن، وأكثر دواماً بالذاكرة ، فإن ذلك أيضاً جعله يثبت في الحفظ، ويتناقل من جيل إلى جيل بنفس الألفاظ والعبارات اللهم في القليل النادر ،

فيغلب على الظن ؛ حينئذ أن عدم وجود هذه الخاصية في النثر قد أثرت في حفظه وفي روايته . فكان أشق في الحفظ ، وأقل دواماً في الذاكرة ، ثم كان عرضة للتغيير أو التحوير ، مع المحافظة على المعنى المقصود ، بطبيعة الحال . ومن هنا لا شك أن النثر الجاهلي كان من الصعب على الرواة أن يحفظوه كله ، وإذا حفظوا بعضه ، فالغالب أنه قد ضاعت منهم بعض ألفاظه. ولكن مهما يكن ، فمن المؤكد أنه بقيت نصوص منه كان لها حظ الرعاية والاهتمام ، فظلت سليمة كما صنعها أصحابها ، حتى تسلمتها بطون الكتب وأمهات المراجع ، فوصلتنا صحيحة سليمة .

***

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ظروف الحياة التي كان يعيش فيها الجاهليون كانت تدعوهم إلى القول ، ولئن نتج عن ذلك شعرهم ، فلا شك أن هذه الظروف نتج عنها كثير من النثر لهؤلاء الموهوبين في صناعة الكلام وليس لديهم موهبة الشعر ، وهم ولا شك كانوا أكثر عدداً من الشعراء ، بدليل ما نعلمه ، وما نشاهده في الأمم القديمة والحديثة في العصور السالفة وعصرنا الحاضر .

لقد كان للعرب اجتماعات خاصة وعامة ، وعلى نطاق ضيق وعلى نطاق واسع ، وكانت بينهم منافسات وتسابق في المفاخر ، والأمجاد ، والأفعال ، والعادات ، وحدثت بينهم مشكلات ، وخصومات ، وعداوات، كما كانت لهم تجارب في الحياة ، فتكونت لديهم خبرات ، كانوا يحبون – بطبيعة الحال – أن يضعوها بين أيدي من يحبون ، لكي يستفيدو بها في حياتهم . كل هذه المناسبات كانت تستدعي القول ، ولسنا نعني القول العادي، كهذا الذي يتحدث به الشخص لقضاء مصالحه العاجلة ، وحاجاته اليومية ، إنما نقصد ذلك القول المؤثر الذي يحفل به صاحبه ، ويودع فيه من طاقات الإثارة كل ما يستطيع .

فالقبيلة في مجتمعها الخاص ، وبخاصة حينما ينتهون من مشاغلهم اليومية ،

ويجتمعون بالليل في مجالس السمر ، لا شك أنهم كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما يجري من شؤونهم ، أو شؤون غيرهم ، أو يستمعون إلى من أوتِيَ حظاً أوفر من القدرة على الكلام الفصيح ، ولا شك أن أحسن ما كان يشوقهم أن يستمعوا إليه أحاديث الآباء والأجداد ، وما كان لهم من مفاخر وأمجاد ، ومن ثم لا بد أنه كان هناك قصص طريف يحاول فيه القصاص أن يستعيد الحوادث ، ويسردها للسامعين بأسلوب شيق أخاذ ، ولا ريب أن هؤلاء القصاصين قد اتخذوا من الحوادث الجارية ، والاحداث السابقة مادة لقصصهم ، ومن هنا وجدت قصص الايام التي تحكي تاريخ الحروب بين الجاهليين ، وقد حفلت بها كتب كثيرة من أهمها شرح النقائض لأبي عبيدة . وغني عن البيان أن ما يحكيه أبو عبيدة وأمثاله عن الايام أو غيرها مما يتصل بالجاهليين ، ليس من نثر الجاهليين ولا يمثل أسلوبهم ، إلا ما يجيء في ثنايا كلام المؤلفين من محفوظات بنصوصها تنسب إلى قائلين جاهليين فهذه جاهلية بالطبع . كذلك حفلت كتب التاريخ القديم بقصص الجاهليين عن ملوك المناذرة ، والغساسنة ، والحميريين ، والفرس ، وغيرهم ، وبأخبار سادتهم ، ورؤسائهم ، وكهانهم ، وعشاقهم ، وشعرائهم ، وما كان لهم من أساطير .

وهم في اتصالاتهم بعضهم ببعض كانوا يتبارون في السيادة ، والشرف ، أو في القوة ، والهيبة ، أو في المكانة والاحترام ، أو يتناقشون لحل المشكلات ، أو فض المنازعات ، أو يتآلفون بالمحالفات أو المصاهرات ، ومن ثم وردت لهم في كتب الادب والتاريخ أنواع من النثر الادبي ، نجد منها : الحِكَم ، والامثال ، والقصص ، والمفاخرات ، والمنافرات ، والخطب ، والوصايا ، وسجع الكهان .

***

أما الحكم والامثال ، فكثيرة ، في تراث الجاهليين الادبي . **والحكمة** : قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلَّماً به . أما **المثل** فهو قول يُشَبَّه مَضربُه بمورده ، فهو يقصد به تشبيه الحال التي حكي فيها بالحال التي قيل بسببها .

ولذلك يحكى المثل بلفظه كما هو بدون تغيير مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام .

وكل من الحكمة والمثل ، عبارة قصيرة بليغة ، ولكنها غاية في تأدية المعنى المقصود . وكل منهما يكون شعراً ، ويكون نثراً ، لكنهما في النثر أكثر دوراناً ، ولذلك يعدان في النثر . وهما ثمار ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل ، والتجربة الصادقة ، والعقل الراجح ، والرأي السديد .

وكثيراً ما تُقتَبَس الحكم والامثال ، وتوضع في الاقوال والاشعار ، فتضفي على الكلام زينة ، فوق ما تؤديه من اصابة المعنى وحسن التشبيه ، ولذلك كان من الادباء من نَظَم قصائد ، وكلها حكم وأمثال كأرجوزة أبي العتاهية التي سماها « الأمثال »[(١)] .

وممن اشتهر بالحكمة من العرب : اكثم بن صيفي التميمي ، وعامر بن الظرب العدواني ، وهما من المعمرين ، وكانت العرب تحتكم اليهما ، ويقال ان عامر بن الظرب لما كبر واعتراه النسيان أمر ابنته ان تقرع بالعصا اذا جار عن القصْد وكانت ابنته من حكيمات العرب مثل هند بنت الخُسّ .

ومن اقوال أكثم[(٢)]: «ويل للشجي من الخلي . لم يذهب من مالك ما وعظك . رب عجلة تهب ريثا . ادرعوا الليل فان أخفى للويل . اذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد. ليس من العدل سرعة العَذْل . لا تطمع في كل ما تسمع. رُبّ قولٍ أنفذُ من صَولٍ . حافظ على الصديق ولو في الحريق » .

ومن اقوال عامر بن الظرب[(٣)] : « رب زارع لنفسه حاصد سواه . من طلب شيئاً وجده ، وان لم يجده اوشك ان يقع قريباً منه .

ولا بد للامثال من أصل تكون قد جاءت بسببه ، وقد يكون ذلك

---

(١) الأغاني : حـ ٣ ص : ١٤٣ .

(٢) المزهر للسيوطي حـ ١ص ٥٠١ .

(٣) البيان والتبيين حـ ١ ص ٤٠١ ، ٢ / ١٩٩ .

الأصل حقيقياً ، وقد يكون فرضياً ، وذلك إن قيل عن حيوان او نبات أو جماد وتسمى أمثال النوع الاول حقيقة والاخرى فرضية .

ومن الامثال الحقيقية : «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» يضرب في صيانة الشخص نفسه عن خسيس الكسب ، وهو للحارث بن سليل الاسدي و«سبق السيف العذل» ويضرب للفائت يستحيل تداركه ، وقائله ضبة بن اد بن طابخة .
وكتب الامثال في العادة تذكر المثل وقائله وتشرح السبب الذي قيل من اجله .

ومن الامثال الفرضية : «كيف أعاهدك وهذا اثر فأسك» يضرب لمن لا يجاب الى عهد لظهور آثار غدره . ويأتي هذا في خرافة الحية والفأس التي تقول : [1] ان اخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما ، وكان قريباً منها واد فيه حية ، قد حمته من كل احد ، فقال احدهما للآخر : يا فلان لو اني اتيت هذا الوادي المكلىء فرعيت فيه إبلي واصلحتها . فقال له أخوه إني أخاف عليك الحية ، الا ترى ان احداً لم يهبط ذلك الوادي الا أهلكته . قال : فوالله لأهبطن ، فهبط ذلك الوادي . فرعى ابله به زماناً ، ثم ان الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها ، أو لأتبعن أخي ، فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق : لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟ فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها . فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر . فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها ، فأثر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه ، ولما رأى

---

(١) أمثال العرب للمفضل العضبي . ص ٨١ .

ذلك تخوف شرها وندم ، فقال : هل لك في أن نتواثق ، ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك .

وقد تتضمن القصة الواحدة أكثر من مثل ، سواء كانت حقيقية أوفرضية كما في حادثة الزباء وقصير [1] ، فقد ذكروا فيها اقوالاً كثيرة ذهبت أمثالاً ، منها : « لأمرٍ مّا جدعَ قصير « أنفه » و « وبيدي لا بيد عمرو » ومن ذلك ما تزعمه العرب من أن أرنباً التقطت تمرة ، فاختلسها ثعلب ، فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب . فقالت الأرنب : يا أبا الحسل . قال : **سَميعاً دعوتِ** . قالت : أتيناك لنختصم إليك . قال : **عادلاً حكمتما** . قالت : فاخرج إلينا . قال : في بيته **يؤتيَ الحكَم** . قالت : إني وجدت تمرة . قال: **حلْوة فكلُيها** . قالت: فاختلسها الثعلب . قال : **لنفسه بَغَي الخير** . قالت: فلطمته . قال : **بحقّكِ أخذتِ** . قالت : فلطمني . قال : **حرٌ انتصف** . قالت : فاقْضِ بيننا . قال : **قد َقضيتُ** . فذهبت أقواله كلها أمثالاً .

وقد عني العرب بالأمثال، فألّفت فيها كتب كثيرة ، منها كتاب صُحار العبدي أحد النسابين في أيام معاوية بن أبي سفيان : وكتاب آخر لمعاصره عُبَيد بن شَرِيّة ، ومنها كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ومجمع الأمثال للميداني المتوفي سنة ٥١٨ هـ وكتاب المستقصي للزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ .

* * *

والمفاخرة كانت تحدث بين اثنين أو أكثر ، وفيها يتباهى كل من المتفاخرين بالأحساب والأنساب،ويشيد بما له من خصال ، وما قام به من جلائل الأعمال. وكانت تحدث بين القبائل كربيعة ومضر ، وبكر وتغلب من ربيعة ، وقيس وتميم من مضر ، وقد تغلغلت المنافرة في بطونهم حتى كانت بين ابني العم في العشيرة الواحدة مثل ما حدث بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وقد تنافرا إلى هرم بن قُطبة الفزاري [2] .

---

(١) تاريخ ابن الاثير جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) الأغاني (ساس) ١٥ ص ٥١ .

والمنافرة كالمفاخرة وأشد ، وكان الرجلان إذا تنازعا الفخر ، وادعى كل منهما أنه متفوق على صاحبه ، تقَـرَّا إلى حاكم يرضيانه ، ليقضي بينهما ، فمن فضله على صاحبه كان له غنم الحكم ، وعلى صاحبه غرم الجعل المفروض من الإبل أو غيرها .

ولكن الحَكَم كثيراً ما كان يتحاشى الحُكم لأحدهما على الآخر،ويعمد إلى الصلح بين المتنافرين ، حسماً للنزاع ، وتفادياً للشر . ويلقي عليهما كلاماً بليغاً يدعوهما فيه إلى الصفاء والسلام والمودة والمحبة . من ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين نفرتا إليه، فقال : «أيها الناس، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب والنسب ، ومعدن المجد ، ولكلٍّ في كل حِلفٍ يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم . يا بني قصي ، أنتم كغصنَيْ شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه . أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دُوَل ، والدهر غِيَر ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحابوا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنية ، فانها تضع الشرف ، وتهدم المجد . ومقام الحليم عظة لمن انتفع به . » فأذعن له الفريقان بالطاعة ، وتصالحا .

ومن ذلك ما حدث من هرم بن قطبة الفزاري حين نفر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة العامريان ، فقد روى : أن عامراً وقف لعلقمة يوماً ، فجعل ينازعه الشرف في قومه ، وتفاقم بينهما الأمر ، فكان مما قاله عامر : والله لأنا أشرف منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول قصبا ! قال علقمة : أنافرك ، وأنا أشرف منك أمّة ، وأطول قِمّة ، وأبعد هِمّة .

وطال بينهما الكلام ، فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما ، وجعلا يطوفان الأحياء ، وهاب الناس أن يحكموا بينهما ، خيفة أن يقـــع في حيَّيهما الشر . حتى دفعا إلى هرم بن قطبة الفزاري (وهو غير هرم بن سنان المري ممدوح زهير)، فلما علم بأمرهما ، أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفادياً للفتنـــة ، وجعل يطاولهما ، ويخوّف كل واحد منهما من صاحبه حتى لم يبق لواحـــد منهما همّ سوى أن يسوّي في حكمه بينهما، ثم دعاهما بعد ذلك،والناس شهود، فقال لهما : « انتما كركبتي البعير ، تقعان إلى الارض معاً ، وتقومان معاً. » فرضيا بقوله ، وانصرفا عنه إلى حييهما .

وقد عُمِّر هرم هذا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقا عمر : أيهما كنت منفـِّراً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو قلتها الآن لعـــادت جذعة (يعني الحرب أو الفتنة). فقال له عمر : « إنك لاهل لموضعك من الرياسة».

* * *

والحياة الجاهلية جعلت الخطـابة ضرورية لهم ، فهم في اجتماعاتهم ، وفي عرض آرائهم ، وفي القيام بواجباتهم في السفارات والوفود، كانوا – ولاشك– يحتاجون إلى الإفصاح عما يريدون ، رغبة في الوصول إلى مقاصدهم وكلما كان إفصاحهم أقوى وأعذب كان تأثيره في القلوب أشد ، فساعد ذلك على وجود الخطابة بينهم .

وقد ثبت انهم كانوا يخطبون في مناسبات شتى ، فبالخطابة كانوا يحرضون على القتال،استثارة للهمم، وشحذاً للعزائم،وبها كانوا يحثون على شن الغارات، حباً في الغنيمة، أو بثاً للحمية رغبة في الاخذ بالثأر ، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم ، حقناً للدماء ، ومحافظة على أواصر القربى أو المودّة والصلة، ويحببون في الخير والتصافي والتآخي ، ويبغضون في الشر والتباغض والتنابذ . وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنـافرين أو ا لمتنازعين ، ويؤدون مهـــام السفارات جلباً لمنفعة ، أو درءاً لبـــلاء ، أو تهنئة بنعمة ، أو تعزية أو مواساة في مصيبة ، فوق مـــا كانت الخطـابة تؤديه في المصاهرات ، فتلقى الخطب ربطا لأواصر الصلة بين العشائر ، وتحبيب المتصاهرين بعضهم في بعض.

وأشهر الخطباء في الجاهلية : قُسُّ بن ساعدة الإيادي ، وقد أدركه النبي ﷺ فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر . وسَحْبانُ بن وائل الباهلي الذي ضرب بفصاحته المثل ، فقيل : «أخطب من سحبان» ويقال إنه كان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ولا يتمعد حتى ينتهي من كلامه.

ومن خطباء تميم المشهورين : صخرة بن صخرة ، وأكثم بن صيفي ، وعمرو بن الأهتم المنقري ، وقيس بن عاصم .

وكان الخطباء يحفلون بخطبهم ، ويتخيرون لها أشرف المعاني ، وأقوى الألفاظ ، وأشدها وقعاً على القلوب ، ليكون تأثيرها أعظم . ويقال إنهم كانوا يخطبون ، وعليهم العمائم ، وبأيديهم المخاصر ، ويعتمدون على الأرض بالقسى ، ويشيرون بالعصىّ والقنا راكبين ، أو واقفين على مرتفع من الأرض [1] .

وقد أثارت الشعوبية في موقفها من العرب عادة اتخاذهم العصي والمخاصر في أثناء خطابتهم ، فرد عليهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، مبينا فوائد العصا ، ومما قاله : «إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للاطناب والإطالة . وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم ، ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها ، والإشارة [2] بها » .

ومن الخطب التي تحرض على القتال : خطبة هانيء بن قبيصة في يوم ذي قار ، يحرض قومه بكرا على القتال ، ومنها : « يا معشر بكر ، هالك معذور خيرٌ من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بد » .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧

ومن كلمات الوفود: كلمة قَبيصة بن نُعَيم في وفد بني أسد، حين قدموا على امرىء القيس بعد مقتل أبيه، فيروى أنه وفد على امرىء القيس، بعد مقتل أبيه، رجالاتٌ من بني أسد؛ كهول وشبان، وفيهم عبيد بن الابرص الشاعر، والمهاجر بن خُداس، وقَبيصة بن نُعيم، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدّم في إفضالهم، والإكرام عليهم، واحتجب عنهم ثلاثا، فقالوا لمن ببابه من رجال كندة: ما بال الرجل لا يخرج إلينا؟ فقال: هو في شُغل بإخراج ما في خزائن حُجْر من العُدة والسلاح، فقالوا: اللهم غَفْراً! إنما قدمنا عليه في أمر نتناسى به ذكر ما فات، ونستدرك ما فرط. فليُبَلَّغ ذلك عنا. فخرج عليهم في قَباء[1]، وخُفٌّ، وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تَعْتَمّ بالسواد إلا في التِّرات[2].

فلما رأوه نهضوا، وبدرَ قبيصة فقال: إنك في المحَلّ والقَدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج الى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرّب. ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرَم أصلك في العرب مَحتِد يحتمل ما حُمِّل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم الى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، ما يُطوّل رغباتها، ويستغرق طَلِبَاتها، وقد كان الذي كان من الخطْب الجليل الذي عمَّت رزيته نزارا واليمن، ولم تخصَص به كندةُ دوننا، للشرف البارع الذي كان لحجر: التاج، والعمّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم. ولو كان هالك يُفدى بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولفديناه منه. ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: اما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها في

---

(١) القباء: جلباب له اكام.

(٢) الترات: جمع ترة وهي المصيبة.

بناء المكرمات صوتاً ، فقدناه إليك بنسعة(١) تذهب(٢) مع شفرات حسامك بباقي قصرته (٣) ، فيقال : رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام؛أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، وكان ذلك فداء ترجع به القضب إلى أجفانها ، لم يردده تسليط الإحن على البرآء ؛ وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل الأزر ، ونعقد الخمر فوق الرايات .

قالوا : فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع طرفه إليهم ، فقال : قد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ؛ وإني لن أعتاض به ناقة او جملا ، فأكتسب بذلك سبة الأبد ، وفت العضد ؛ وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن اكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ، تحمل في القلوب حنقا (٤) وفوق الأسنة علقا (٥) .

إذا جالت الخيل في مأزق تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار (٦) ؛ لحرب وبلية ، ومكروه وأذية . ثم نهضوا عنه ، وقبيصة يقول متمثلا :

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت كتائبنا في مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس : لا ، والله لا أستوخمه ، فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة ، وكتائب حمير ! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي ،

---

(١) النسعة : سير من الجلد يوضع في أنف الجمل لاذلاله ، والمراد قدناه اليك ذليلا مصغراً كما يأتي البعير الذليل .

(٢) تذهب أي أنت .

(٣) القصرة : عظام العنق .

(٤) حنقا : غيظا .

(٥) العلق : دم غليظ متجمد .

(٦) الاجترار : ما يجره الانسان على نفسه من سوء عمله ، ومنه الجريرة ، وهي الذنب .

إذ كنت نازلاً بربعي ، ومتحرماً بذمامي ، ولكنك قلتَ فأجبتُ . قال قبيصة : إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب . قال امرؤ القيس ، فهو ذاك . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

يا ذا المخوّفُنا بقتل أبيه إذْلالاً وَحَيْنَا
هلاّ على حُجْر بن أمّ قَطَامِ تبكي لاعلينا
نحن الأُلى فاجمع جمُوعَكَ ثم وجّهْهُمْ إلينا
نحمي حَقيقتَنا وبَعْضُ القوم يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنا

ونجد أمثلة من خطب الجاهليين في كتب الأدب والتاريخ ، مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ، والاغاني ، والامالي ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وفتوح الشام لأبي اسماعيل البصري ، وفتوح الشام للواقدي ، وفتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ الطبري ، وابن الاثير .

ومن الوصايا: وصية عامر بن الظرب لقومه ، ومنها : « يا معشر عدوان: لا تشتمتوا بالذلة ، ولا تفرحوا بالعزة ، فبكلِ عيش يعيش الفقير مع الغني ، ومن يُرِ يوماً يُرَ به ، وأعِدّوا لكل أمرٍ جوابَه ، إن مع السفاهة الندم ، والعقوبة نكال ، وفيها ذمامة ، ولليد العليا العاقبة ، وإذا شئتَ وجدتَ مثلك ، إنّ عليك كما أن لك ، وللكثرة الرعب ، وللصبر الغلبة ، ومن طلب شيئاً وجده ، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريباً منه » .

ومنها وصية زوجة عوف بن محلم الشيباني لابنتها حينما زُفَّت إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة ، وفيها تقول : « أي بُنَيَة ، إن الوصية لو تُركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل . أي بُنيّة إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلّفت العش الذي فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أمة يكن لك عبداً . يا بنية ، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً ؛ الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ؛ والتعهد لموقع عينه ؛ والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيبَ

ربح ؛ والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ؛ والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير ، والإرعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير ، ولا تفشي له سراً ، ولا تعصي له أمراً ، فإنك إن أفشيت سِرَّه لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمرَه أوْغَرْتِ صدرَه ؛ ثم اتقي – مع ذلك – الفرحَ إن كان تَرِحاً ، والاكتئاب عنده إن فَرِحا ، فإن الخصلة الاولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني اشد ماتكونين له إعظاماً ،يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافَقَة يكن أطول ما تكونين له مرافَقَة ، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببتِ وكرهتِ ، والله يخير لك » .

* * *

وكانت الكهانة موجودة عند العرب في الجاهلية ، وكان للكهان قداسة دينية ، ونفوذ كبير ، إذ كانوا يوهمون العامة بأنهم يعرفون الغيب عن طريق ما يتلقون من الجن ؛ وكان الناس يتجهون إليهم يحكمونهم في المنازعات ، والمنافرات ، ويستشيرونهم في أمورهم وبخاصة المستقبلة ، ويقصُّون عليهم أحلامهم لكي يفسروها لهم ، وأحياناً كان الكهان ينذرون بعض القوم بأحداث تقع لهم .

ولم تكن الكهانة مقصورة على الرجال ، بل كان هناك نساء كاهنات كذلك ؛ ومن أشهر الكهان : شِقُّ أنمار ، وتحكي الاساطير عن خِلقته أنه كان شِقّ إنسان ، له عين واحدة ، ويد واحدة ، ورجل واحدة . ومنهم سَطيح الذّئبى ، ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته ، وأن وجهه كان في صدره ، ولم يكن له عنق . ومنهم المأمور الحارثي ، كاهن بني الحارث بن كعب ، وعُزّى سَلِمة . ومن أشهر الكاهنات : طريفة الكاهنة ، وكانت باليمن ؛ وفاطمة الخثعمية ، وكانت بمكة ؛ والزرقاء بنت زهير ، وزَبْراء

كاهنة بني رِئام .

وكان الكهان في أحاديثهم يعمدون غالباً إلى سجع مصطنع ، فيه غموض وإبهام ، كأنما كانوا يقصدون زيادة التأثير في السامعين ، وإلهاءهم عن التتبع لما يلقى إليهم من الأخبار التي كانت في منتهى الغرابة والعجب .

ومما ورد لهم [1] ، ما يروى « أن حجرا أبا امرىء القيس رقّ لبني أسد ، فبعث في إثرهم ، فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبني أسد : « يا عبادي ! قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصْهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْثَعب [2] ، وهذا غدا أول من يُسلَب . قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قبته ، وقتلوه . »

ويروى أن شِقّاً وسَطيحاً اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب ، فأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد في تصديقه ، إذ قال : أحلف بما بين الحرتين من حَنَش ، ليهبطن أرضَكم الحبش ، وليملكُنّ ما بين أبْيَن إلى جُرَش [3]. وقال شق : أحلف بما بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم السودان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

ويقال إن زبراء أنذرت قومها غارة عليهم ، فقالت: « واللوح [4] الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق [5] ، إن

---

(١) الأغاني : حـ ٩ ص ٨٤ .
(٢) ينثعب : يسيل .
(٣) مخلافان باليمن .
(٤) اللوح : هنا الريح .
(٥) الوادق : المطر .

شجر الوادي ليأدوا[1] ختلا، ويحرق أنيابا عصلا[2] ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا [3] .

ومن المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون في كلامهم بمثل هذا السجع المتكلف ، بدليل أنهم لما سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل ، فردّ الله زعمهم بقوله تعالى : « فذكّر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن » وقوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » . وغير ذلك من الآيات .

وظاهر من نماذج نثرهم أن الكهان كانوا يستعملون السجع المتكلف الغامض ، وفي جمل قصيرة ، غير واضحة المعنى ، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها . وأغلب الظن ، بل يكاد من المؤكد ، أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون ، فكانوا يأتون بالألفاظ ويرصفونها بعضها بجانب بعض ، دون وعي تام لمعانيها ، ما دام السجع موجودا فيها . ويكتنفها الغموض والإبهام . مكتفين بالإيماء والتلميح ، متخذين من حال مخاطبيهم النفسية ما يساعدهم على ذلك . كما يفعل ضاربو الرمل والحصى بيننا الآن .

* * *

ومما سقناه من النماذج نرى أن النثر الجاهلي شمل عدة نواح في الحياة الجاهلية ، فطرق جميع المسائل التي تهم الإنسان في حياته ، واستُخدِم وسيلة فعّالة في التأثير على النفوس ، وفعلا كان – وما زال – له أثر كبير لا يقل عن أثر الشعر النفسي ، فهو بذلك نثر أدبي ، ومن الفنون الجميلة الرفيعة .

كما أنه صوّر كثيراً من المشاعر الإنسانية ، فجاء في أغراض مختلفة ،

---

(١) يأدوا : يختل .

(٢) عصلا : معوجة .

(٣) معل : ملجأ .

وبخاصة ما كان منه في الخطابة والحكم والوصايا وتبعاً لذلك جاء في صور متعددة ، وأساليب متباينة ، طبقاً للنواحي التي يعالجها .

وفي النماذج النثرية التي سقناها للجاهليين ، نجد منها ما هو طويل ، ومنها ما هو قصير ، ويتجلى القصر بشكل ظاهر في الحكم والأمثال ، وتتراوح الخطب والوصايا بين الطول والقصر ، وعن عادتهم في الخطب في الزواج يقول الجاحظ إن الخاطب كان يطيل ، ويقصّر المجيب [١] ، ويقول عن خطابتهم بوجه عام : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدَرَ والوَبَرَ والبدو والحضر على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه ، ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ، ومتشاكلا في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفِقَر الحسان ، والنُّتَف الجياد ، ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع [٢] » .

وفي النثر الجاهلي تتجلى العصبية القَبَلية ، فالفخر بالاحساب والانساب في المفاخرات والمناقرات ، ويظهر الحب والمودة والرغبة في الخير لافراد الاسرة أو العشيرة الواحدة في النصائح والوصايا . ولئن شاع عنهم الغضب وسرعة التهور والحمق والسفه ، فاننا نرى من خلال هذه النماذج أنه كان فيهم ميل للصلح وحب للخير ، كهذا الذي نراه في كثير من تصرفات الحكام في المفاخرات والمنافرات ، وفي مساعي الصلح بين الاعداء والمتخاصمين ، لفض النزاع بالطرق السلمية .

وربما تكون القصص والاخبار التي تحكى عن حوادث معينة لم تحتفظ بنفس ألفاظ النص الجاهلي وعباراته فاعتراها التغيير من جانب الرواة والقصاصين ، لكن لا شك أن الاحداث التي فيها ، لها أصل تاريخي . أما الحكم والامثال المنسوبة الى الجاهليين ، فهي في الغالب صحيحة في نسبتها إليهم ، خصوصاً ما جاء عن راوية موثوق به كالمفضل الضبي ، ذلك لان الحكم والامثال - على

---

(١) البيان والتبيين ؛ جـ ١ ص ١١٦

(٢) البيان والتبيين : جـ ٢ ص ٧ .

العموم – سرعان ما تعلق بالذهن ، وتظل بالذاكرة مدة طويلة خصوصاً إذا أتيحت لها الفرص لإعادتها وتكرارها ، ثم إنها دونت في عهد مبكر ، منذ القرن الاول ، فقد كتب فيها عبيد بن شرية كتاباً ، وإن كان قد ُفقد ، فيغلب على الظن أن من كتب فيها من بعده قد انتفع بكتابه هذا . على أن النصوص الدخيلة ، يغلب على الظن ، أن تكون تقليداً مطابقاً للأصل بحيث نستطيع أن نتبين منها خصائص النثر في العصر الجاهلي .

والقصص الخرافية ، والامثال الفرضية ، لا شك أنها كانت ترمي الى تصوير حالات ، وتصرفات إنسانية ، ولم يرض مؤلفوها أن يكتبوا عن هذه الحالات أو التصرفات بالتصريح والتعيين، فاخترعوا هذه القصص مكتفين للوصول إلى أغراضهم بالتلميح والإشارة من طرف خفي . ولا ريب انها كانت ترمي كذلك إلى الناحية التهذيبية والتوجيه إلى الخير والنفع وبخاصة ما كان منها حكماً وأمثالاً . ولا ريب أن تأليفها يدل على الذكاء ، وقوة الملاحظة ، وخصوبة الخيال لدى مؤلفيها .

وفي النثر الجاهلي – كما رأينا في الشعر ألفاظ وعبارات قد تبدو لنا غريبة، ولكن ذلك، كما أشرنا آنفاً ، ليس لغرابتها في الاصل ، ولكن لعدم استعمالنا لها . وفي بعض القطع النثرية تبدو السهولة في التعبير والمعنى بشكل واضح، ولا يجوز أن تكون هذه السهولة وحدها سبباً في الطعن في أصالة هذه النصوص فليست السهولة متعارضة مع الاصالة الجاهلية ، فكثير من النصوص الجاهلية، شعرية ونثرية ، سهلة الاسلوب ، وهي مقطوع بصحتها وأصالتها، وفي القرآن الكريم يتجلى الاسلوب السهل الواضح في كثير من آياته ، بل في ُسوَر من ُسوَره بأكملها .

وواضح جداً أن أصحاب النثر الجاهلي كانوا يعنون عناية ظاهرة بالالفاظ والعبارات ، فكانوا – على ما يبدو – يختارون ويدققون في الاختيار ، ويظهر ذلك ، في القوة ، والجزالة ، والتنغيم الموسيقي الذي نراه في الجمل النثرية على اختلاف الاشكال والاساليب ، ففي جميع أنواع النثر الجاهلي نجد

الرصانة ، والانسجام التام بين الكلمات والعبارات بعضها وبعض ، كما تظهر الناحية الموسيقية ظهوراً تاماً في كل جملة ، حتى إن الجملة قد تصلح أن تكون شطر بيت من الشعر لما فيها من النغمات الموسيقية المنتظمة ، وبخاصة في الحكم والامثال ، مثل : « وتحت الرغوة اللبن الصريح » ، فهي شطر من الوافر .

وجاء في النثر الجاهلي نثر مرسل ، ونثر مسجع ويغلب النثر المرسل في خطب الصلح والمعاهدات ، واما النثر المسجع ففي المفاخرات والمنافرات وفي نثر الكهان ، بل انه التزم في هذا الاخير التزاماً فكان الكهان لا يقولون الا سجعاً ولذلك اطلق على نثرهم « سجع الكهان » ويظهر ان الجاهليين كانوا يعجبون بالنثر المسجع ، حتى انه كان يجيء أحياناً في الجملة الواحدة ، مثل «إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد» و«ليس من العدل سرعةالعذل» و « رُبَّ قول انفذ من صول » . ولكنه على العموم كان سجعاً لطيفاً وجميلا في موقعه مما يوحي بأنه طبيعي لا أثر للصنعة فيه ، الا في سجع الكهان ، فالتكلف واضح فيه .

ويغلب في النثر الجاهلي الميل الى الجمل القصيرة وبخاصة في الحكم والامثال ، حتى إن الجملة قد تجيء مكونة من لفظتين فقط ، مثل «حُرَّة انتصف » و « سميعاً دعوت » .

كما كان يتخلل نثرهم ، وبخاصة الخطابة ، أبيات شعرية ، فتضفى على الكلام جمالاً ، وروعة .

وفي النثر الجاهلي الوضوح والصراحة بحيث لا يحتاج الى كد الذهن او التعمق في الخيال ، وقد سبق الحديث عن هذه الظاهرة في الشعر ، وليس هناك غموض الا في سجع الكهان ، وقد ذكرنا آنفاً ان الكهان كانوا يتعمدون الابهام في سجعهم ، فكانوا يقصدون اليه قصداً .

وقد ورد في النثر بعض المحسنات البلاغية ، كالتشبيهات، والاستعارات،

والجناس ، كما في « العدل » و « العذل » في « ليس من العدل سرعة العذل » ، وكما في « قول » و « صول » في « رب قول انفذ من صول » .

ومن هذا كله يتبين ان النثر الجاهلي ، كالشعر الجاهلي ، يمكن ان نعتمد عليه في تصوير الحياة واللغة العربية في العصر الجاهلي تصويراً صادقاً ، ومن أنواعه المختلفة يتضح أنه كان متنوع الاغراض ، متعدد الاتجاهات ، وهو يدل دلالة واضحة على قوة الملاحظة ، ودقة الاحساس ، ورقة الشعور لدى اصحابه ، ويتجلى ذوقهم الفني بما تحقق لهم فيه من حسن التعبير وجمال التصوير .

أغراض النثر الجاهلي

٥/٥/٧١

٦/٤/٧٠

١- الحكم والأمثال

٢- الخطابة .

٣- القصص الخرافية

٤- سجع الكهان

يمكن أن يعتمد عليه في تصوير الحياة الجاهلية وكذلك اللغة العربية فهو يعبر تعبيراً صادقاً عن صفة البيئة .

دلالته

يدل دلالة واضحة على

١- قوة الملاحظة

٢- ودقة الاحساس

٣- رقة الشعور لدى أصحابه .

٤- حسن التعبير وجودة التصوير

مطابع بيبلوس الحديثة
فرن الشباك – شارع مار نهرا
تلفون : ٢٨٤٥٢٩